الجزء الثاني

obeikandl.com

obeikandl.com

الاستشفاء بالقرآن العظيم

كيف نداوي بالقرآن جراحنا

obeikandl.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وأصل هذا الباب هو أمران:

الصدق والوضوح في معرفة النفس وعيوبها.

طلب علاج النفس في القرآن تعبدًا لله وثقة بكتابه وأنه لن يشفيه شيء كما سيشفيه كتاب رب العالمين، وإن صح إطلاق لفظ الطبيب فالله تعالى هو الطبيب الأعظم.

ثم نشير أيضًا إلى نقطة هامة وهي أنه إنما نبحث عن علاج وجيعتنا وما يؤخرنا عن إقامة هذا الدين في نفوسنا وفي واقعنا.

obeikandl.com

مقدمة

هذا هو الشق الثاني من الكتاب .. فقد كان الشق الأول في الفصول السابقة هو لفهم المقصود من القرآن كمقاصد عامة من الآيات الكريمة .. إما المقصد الأصلي العام وهو التوحيد، أو المقصود من آيات الأحكام أو آيات الخلق والكون أو القصص أو الشخصيات أو الترهيب والترغيب..

لكننا هنا نقصد إلى الشق الآخر وهو الشق العملي .. فالفهم في ذاته هام .. لكن هناك عمل كذلك مع هذا العلم وهو طلب شفاء أدوائنا من الأمراض الشخصية والنفسية وأمراض القلوب سواء من الناحية الفردية للعبد أو على مستوى عام للأمة ..

والناس في العام الأغلب إنما يتعاملون مع الاستشفاء بالقرآن على سبيل الرقية والتبرك فحسب، وهي حق بضوابطها الشرعية، ولكن القرآن له غاية عظمى وهو إصلاح الفطر والنفوس وإعادة الاعتدال لها والحفاظ على تقويمها: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، فقد أشار القرآن بعدها أن الأغلب يسقط عن هذا التقويم الحسن والتكريم إلى أسفل سافلين يعني: ليس سفولاً عاديًا بل إلى قاع لا قرار له ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾.. ثم أشار إلى أن الذي يحافظ على هذا التقويم هم من التزم هذا المنهج وتلقى من ربه تعالى منهجه الكريم المضمَّن في كتبه على ألسنة رسله الكرام .. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٤-٦].

وهذه محاولة متواضعة لطَرْق هذا الأمر بهذه الطريقة من طلب شفاء الأمراض الشخصية والنفسية والعامة للأمة من خلال كلمات هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن الخسارة ترك هذا الكنز، ومن الخطورة ترك هذا العلاج وإلا:

أولاً: لن تخرج الأمة من غيبوبتها وكبوتها التي امتدت لقرنين من الزمان وأكثر، وهى تنتظر المزيد من الذبح والتفتيت والذل والتغييب عن الدين.

وثانيًا: سنحاسب في الآخرة على أدواء مُهلِكة قد أنزل الله تعالى شفاءها في كتابه الذي نص على أنـه شفـاء.

والقرآن يعالج الأمور العلمية من اليقين والفهوم والعلوم .. وكذلك يعالج الأمور العملية من إصلاح الإرادات ومقاصد العبد وطريقة حياته وعلاقاته وتفاعله وتعامله مع الخلق من إخوانه أو أعدائه أو الكون من حوله.

فالقرآن صبغتنا ومنهجنا وطريقة حياتنا .. والله الموفق وهو المستعان.

الاستشفاء

نص الله سبحانه وتعالى أن هذا الكتاب شفاء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ومن يعقل هذا عن ربه ويصدقه فلابد أن يعقبه بموجَبه .. وهو أن يطلب بناءً على هذا شفاء مرضه في كتاب الله تعالى.

فهل نحن مرضى .. وهل نحتاج إلى الاستشفاء؟.

لمعرفة الحقيقة لابد أن نعرف حقيقة نفوسنا.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والظلم على وجه المبالغة ﴿ ظَلُومًا ﴾ .. والجهل على وجه المبالغة ﴿ جَهُولًا ﴾ هي صفات لازمة للإنسان لا تنفك عنه.

ففي جانب العلوم والتصورات والإدراكات هو جاهل .. بل جهول.

وفي جانب الإرادات والعمل هو ظالم .. بل ظلوم

* * *

ومن عرف نفسه عرف هذا .. ومن لم يعرف هذا عن نفسه فلم يعرفها وقد عرّفها له ربه فليعرفها إذًا.

* * *

١ - فالإنسان الجاهل بل الجهول يحتاج إلى ربه يعلمه .. فهو محتاج إلى العلم يداوي به جهله وفي هذا جاء الحديث: «هلا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال»، «ألم يكن شفاء العي السؤال»[(١)].

فنص عليه الصلاة والسلام على الاستشفاء من الجهل بالعلم وكان هذا في مسألة بعينها، وهو مستند إلى القاعدة المذكورة في القرآن بأن الأصل هو الجهل حتى يُعَلّمه الله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي هذا جاءت المنّة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وهذا ما سأله إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فالتعليم من أعظم ما يسأله العبد ربه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وهو محتاج إليه دائمًا.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى، جـ ١، ص ٢٢٧.

وهذا الجانب مطروح للخلق وقد ضمن الله تعالى لأصول هذا الدين الحفظ .. ومَن طلبها من بـ يريد معرفة ما أنزل الله وما كان عليه رسول الله وصحبه من الفَهم والعمل وجده: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وحديث عليّ: اسأل الله الهدى والسداد. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد ا حدثني أبي ثنا خلف ثنا خالد عن عاصم بن كليب عن أبي بردة عن أبي موسى أن عليًا ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «سَلِ الله تعالى الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق واذكر بالسداد تسديدك السهم»[1].

* * *

٢- والجانب الآخر هو جانب الإرادات والأعمال وضبطها واستقامتها لما يصلح العبد وينفعه في الآخرة، وتجري أموره على استقامة في الدنيا .. وهو جانب كبير يحتاج إلى الكثير من الاستشفاء لكثرة الأمراض وكثرة الانحرافات ولالتواء النفوس كثيرًا عن الاستقامة، وهذا ما يُهمَل كثيرًا، ويُحصر الاستشفاء بالقرآن في جانب ضيق جدًا من الرقية ـ وإن كانت حقًا ـ لكن الأصل العظيم الذي نزل من أجله القرآن أنه كما نزل بالعلوم الرافعة للجهل والحقائق الموضحة لما لا يعلمه الإنسان ويحتاجه لصلاح حاله ..

فكذلك نزل بشفاء الإرادات وصلاحها لتطلب ربها سبحانه وتعالى .. فيرفع بذلك ظلمها.

وإضافة إلى صلاح الإرادات فإنه يطلب كذلك صلاح الشخصيات المنحرفة، والأخلاق المنحرفة، والميول المنحرفة.

* * *

وأصل هذا الباب هو أمران:

١- الصدق والوضوح في معرفة النفس وعيوبها.

٢- طلب علاج النفس في القرآن تعبدًا لله وثقة بكتابه وأنه لن يشفيه شيء كما سيشفيه كتاب رب العالمين. وإن صح إطلاق لفظ الطبيب فالله تعالى هو الطبيب الأعظم[2].

* * *

ونقصد بالصدق أن يعرف الإنسان منا مرضه ويواجه نفسه بعيبه فإن ادعى أنه لا عيب فيه فهو مراوغ. وبألفاظ أكثر صراحة هو كاذب يخدع نفسه.

والمشكلة هي في نزولنا قبورنا بأمراض تهكلنا هناك وتهلكنا يوم القيامة .. فلماذا نسكت على أمراض تغضب الله منا وتهلكنا يوم القيامة وبيدنا علاجها، ويكون الدافع لهذا السكوت عن العلاج هو المكابرة أو الانصراف وعدم الاهتمام وعدم الشعور بالخطر.

كذلك فإن بعض هذه الأمراض تعاني منها أمة بأكملها .. وتؤثر اليوم في مسيرة الأمة واستمرار أوضاع مذلتها.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، جـ ١، ص ٨٨، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) ورد عن أبي بكر وابن مسعود إطلاق هذا اللفظ ففي مرض موت كل منهما قيل له: ألا نأتي لك بطبيب؟ فقال أبو بكر: الطبيب زارني، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد. وقال ابن مسعود: الطبيب أمرضني. وفي الأثر الإلهي: (وأهل معصيتي لا أقنطنهم من رحمتي فان تابوا فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب).

حتى إن علمَت ما تجهل من حقائق الدين التي غابت عنها بفعل الأوضاع السيئة .. فالعلوم والمفاهيم الصحيحة وحدها قد لا تغيرها بل ولا تحرك فيها ساكنًا لانحراف الميول وتهرّؤ الشخصيات التي لعب بها الاستخفاف وأفسد خامتها!.

* * *

والمقصد من هذا المأخذ هو فتح المجال للتنبيه عليه ومعرفته والمضي فيه.

سنضرب أمثلة لبعض الأمراض .. لكن الأمراض بطبيعتها لا تنتهي فلهذا لا غناء عن هذا المأخذ .. ولابد من التمسك به سواء كان فردًا صادقًا يريد أن يربي نفسه .. أو مجموعات تريد أن تغير الصورة الجماعية للأمة .. أو توجيه عام للأمة كلها لإصلاح ما بها من خلل.

ولهذا فتأكيدنا هنا على المأخذ هام جدًا. وضرب الأمثلة مقصود به توضيح المأخذ أكثر وليس حصر الأمراض فيما سنذكره.

ولنشير هنا إلى نقطة مهمة وهى أن الآية قد تقرؤها، ويكون تأثيرها عليك ضعيفًا ولا تلتفت إلى ما فيها أو بتعبير أصح لا يفتح الله تعالى لك معانيها .. لكن إن كنت قاصدًا للاستشفاء لوجع ما عندك أو (الاستشفاء لوجيعتك) فإن الاستفادة من الآية ستعظم جدًا وسترى فيها كنوزًا .. كنوزًا عملية .. كنت عنها غافلاً.

وقد تكفيك سورة قصيرة أو بعض آيات أو آية واحدة أو تستشفي ببعض آية أو بكلمة من رب العالمين.

أيٌّ من هذا ينزل على (وجيعتك) ـ التي تعاني منها والتي تريد علاجها بصدق، وبوضوح مع نفسك، وتطلب علاجها في كتاب ربك ـ سيكون هذا كافيًا شافيًا.

قد تُكتب كتب في مرض بعينه، لكن تشفي منه آية وأحيانًا بعض آية أو بعض المواضع في كتاب رب العالمين .. ومهما يكن جودة ما يكتب فالارتباط بكتاب الله تعالى لا يعادله ارتباط. وإنما وظيفتنا أن نربط الخلق بهذا الكتاب العزيز ، فالقرآن يعرف طريقه الى الفطرة جيدا وبسهولة فيسكب فيها نوره وهداه.

إن الله رب الناس .. وربوبيته لهم ربوبية شاملة. فهو كما يخلقهم ويرزقهم ويكسوهم ويطعمهم ويسقيهم ويعافيهم .. فهو يشفي أمراضهم ويصلح أحوالهم ويصلح قلوبهم.

فغاية العبد أن يكون له قلبًا سليمًا، وهذه غاية عظمى فالقلب السليم مستقيم باطمئنان على منهج ربه ومتوجه لله تعالى بكافة نفسه في يسر[1].

* * *

والأدواء كثيرة: عدم الصدق داء .. افتقاد الإخلاص داء .. استيلاء الشهوة على القلب بحيث تكون هي الدافعة والمحركة بل والمانعة من الهدى داء .. الإمعية والتبعية داء .. ضعف النفس وعدم القدرة على اتخاذ القرار وعلى المبادأة داء .. البخل داء .. الاستضعاف والاستذلال للغير داء ..

الاستخفاف بمعنى الحَمل على الخفة والسير في ركاب الجموع وعدم التفكير بمدى صحة ما عليه الجموع داء ..

---

(١) راجع آخر ما ختمنا به هذا الفصل في هذا الجزء.

إلغاء الإرادة وافتقادها بل والتهرب من مسئوليتها داء ..

عدم الموضوعية داء .. الانبطاح للمستقوي المبطِل مع العلم ببطلانه داء ..

التخلي عن الحق وإضاعته والتعمية عليه وصرف أنظار الناس عنه داء ..

الركون إلى الدنيا وعدم القلق منها وعدم الانزعاج نحو الآخرة داء .. عدم الاهتمام بالدين أصلاً داء.

هي أدواء كُثْر .. فعجبًا لمن لم يطلب شفاء هذا في الكتاب العزيز، وأعجب من ذلك من يخفيها ويكابر، وأعجب منهما من يجهلها، وأعجب وأعجب من لا يهمه الأمر!!!.

* * *

ولنشرع في بيان بعض الأمراض وعلاجها في هذا الكتاب العظيم العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وصفة الحكيم وحدها لها معناها. وصفة الحميد لها معناها.

حكيم بإطلاق شرعًا وقدرًا وهو حميد بمعنى محمود على ما يفعل وما لم يفعل .. وهو محمود تعالى على ما شرعه لنا.

وأما جمع الصفتين فلهما معنى ثالث وهو: أنه حكيم حكمة بالغة يحمد عليها فبلوغ حكمته عظيم لدرجة الحمد فهو محمود في حكمته وحكمته نابعة من حمده وبالغة حمده سبحانه وتعالى، وهذا في ربوبيته وكذلك ألوهيته.

فمن نظر في كتاب ربه فعلى هذا المنحى ينظر وبهذا الحمد والثقة والاطمئنان والتعظيم والتعبد يجب أن يتعامل.

* * *

وأكرر أن الأمراض لا تنتهي .. ولهذا أؤكد على المأخذ من ناحية لفهمه والاحتفاظ به، وأن الأمثلة التي سنوردها لها **وظيفتان:**

أولاً: معرفة المأخذ بوضوح أكثر.

وثانيًا: هي نفسها أمراض هامة اخترناها لبيانها وبيان علاجها لكن لا تحصر الأمور فيها.

* * *

ثم نشير أيضًا إلى نقطة هامة وهي أنه إنما نبحث عن علاج وجيعتنا وما يؤخرنا عن إقامة هذا الدين في نفوسنا وفي واقعنا، لكن لا يبالَغ في التفتيش عن كل عوار النفوس وإلا لم تنته ويصير هو مرضًا بذاته، والتوسط بين الأمرين هام وهو علم مطلوب وفقه وحكمة مطلوبة لضبط الأمر.

* * *

أمر أخير نُذكِّر به .. أنه قد يأتي علماء أو دعاة بأدلة أفضل أو أجمع مما سيرد هنا، فالكمال لله تعالى وحده ، فإنما قصدنا الإصلاح، واستعمال القرآن لمداواة جراحنا وللخروج من هذه الأزمة والغيبوبة التي تعيشها الأمة وللخروج من النفق المظلم ، وبَذَلْنا ما استطعنا فعلى الله التكلان وبه التوفيق وهو المستعان جل جلاله وتقدست أسماؤه.

* * *

افتقاد الصدق

والصدق ليس محصورًا في صدق الكلمة وإن كان صدق الكلمة جزءً منه، والصدق هو الدين كله قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥].

فالتصديق في الآية تصديق خاص ليس مجرد تصديقًا خبريًا بحيث يقول: هذا خبر صادق أو هذا رسول صادق .. بل كان تصديقًا يستلزم أعلى درجات القيام بهذا الدين باطنًا وظاهرًا حتى كان صاحبه في قمة التمسك والحياة بدين الله تعالى فمع التصديق وُصِفوا بالتقوى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، وجوزوا بالإحسان ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

والصدق كما يعرفه ابن القيم: تفريد الطلب، بينما الإخلاص هو تفريد المطلوب.

ومعنى تفريد الطلب هو: جمع الهم والعزم على المضي في هذا الدين .. على الله تعالى وحده.

فافتقاد الصدق يؤدي إلى المخالفة لهذا الدين، أو التواني في أخذه، أو الخيانة في المواقف، أو انتهاج منهج مخالف مع العلم بالحق ..كل هذا افتقاد للصدق أو كذب صريح.

وهذا داء عام انتشر كثيرًا، وهو مسئول عن تأخر التمكين لهذا الدين.

فكم ممن علم الحق ولم يصْدُق في حمله .. وكم ممن تخلى عنه ..

وكم ممن خانه أو باعه أو بدّله أو لبّسه .. وكم ممن زهد فيه وجعله أدنى المطالب!.

كم ممن يخالف عَملُه عِلمهَ، وباطنُه ظاهرَه، ومدخلُه مخرجَه، وسِرُه عَلانيتَه، وصورتُه في بيته صورتَه بين الآخرين ..

وكم ممن يكتم الحق بل يتواصى بكتمانه فيوصى تلامذته وإخوانه ويتأكد منهم أنهم يكتمون الحق ولا يبوحون به إرضاءً لمن يرغب في إرضائه! شراءً لأضواء .. أو شراءً لإشارة ببنان .. أو ذكر بألسنة كلها تراب من تراب .. فانية بالية .. لا وزن لها .. بل ويأملون أن تخلد ذكراهم! تبًا لهم.

وكم ممن استؤمن على هذا الدين لينصره في موقف فخانه .. وكم ممن استؤمن على هذا الدين ليحمله فتخلى عنه وانصرف .. وكم ممن عقد صفقة أخذ فيها الدنيا!! وأعطى فيها أمانة أمة!!.

* * *

ولمن علم وجيعته هذه وقصد الاستشفاء والعافية قبل الهلاك فلينظر في كتاب الله تعالى:

ولهذا الأمر عدة مآخذ منها:

• أنه قد عدَّ ربنا سبحانه صدق الكلمة صدقًا .. لكنه نص على أن الصدق في الموقف صدق وإلا عُدَ صاحبه كاذبًا: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣ - ٢٤]، نزلت في عهد أخذه أنس بن النضر على نفسه كما يحكي أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما، يقول الإمام مسلم: وحدثني محمد بن حاتم حدثنا بهز حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال:

قال أنس: عمي الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا قال: فشق عليه. قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه وإن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد. قال: فاستقبله سعد بن معاذ فقال له: يا أبا عمرو أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة أجده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قُتِل. قال: فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾، قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه(١).

فلما صدق في هذا الموقف نزلت فيه وفي أشباهه هذه الآية.

• وعدَّ ربنا سبحانه الموقف الذي يرجع فيه المؤمن عن إيمانه أنه كذب عظيم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

فعدّ شعيب عليه السلام رجوعه والمؤمنين معه عن دينهم وموقفهم ليس مجرد كذب بل هو كذب على الله وافتراء عليه، ذلك لأن الرجوع عن دين الله يتضمن رسالة مفادها أنه يرى أن ما كان عليه باطلاً فلذا رجع عنه، وأن موقف المشركين حق ولهذا عاد إليه، وأن ما وعده ربه في الآخرة كذبًا ـ حاش لله ـ فلهذا لم يصبر على أمره،كل هذه الأباطيل رسائل يرسلها المرتد عن دينه وموقِفه الحق، وهي لازمة له، شاء أم أبى.

وانظر إلى آية النحل: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٥ - ١٠٦].

فعلى هذا الوجه من التفسير يكون قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ.. ﴾ الآية، هو تفصيل لوصف مَن وصَفَهم بالكذب في قوله: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ يعني: كأنك تسأل من هم الكاذبون

---

(١) صحيح مسلم، جـ ٣، ص ١٥١٢.

عمي الذي سميت به: أي باسمه وهو أنس بن النضير.

ليراني الله ما أصنع: هكذا هو في أكثر النسخ ليراني بالألف وهو صحيح ويكون ما أصنع بدلاً من الضمير في يراني أي ليرى الله ما أصنع.

فهاب أن يقول غيرها: معناه أنه اقتصر على هذه اللفظة المبهمة وهي قوله: ليراني الله ما أصنع. مخافة أن يعاهد الله على غيرها فيعجز عنه أو تضعف بنيته عنه أو نحو ذلك وليكون أبرأ له من الحول والقوة.

واهًا لريح الجنة: قال العلماء واها كلمة تحنن وتلهف والقائل هو أنس.

أجده دون أحد: محمول على ظاهره وأن الله تعالى أوجده ريحها من موضع المعركة وقد ثبتت الأحاديث أن ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام.

الكاملون في الكذب والممتلئون به بحيث كأن ما سواهم لا يسمى كاذبًا فيوصفون به دون غيرهم؟ قيل لك: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ الآية.

ثم نص سبحانه على السبب الدافع لهذا الكذب والباعث عليه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٧].

فالآية جعلت مَن: «قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا ولأنَّا لا نجوّز أن يقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام قال سبحانه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.

ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره، ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول وإنما يكره على القول فقط؛ فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا من المكرهين فإنه كافر أيضًا فصار من تكلم بالكفر كافرًا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان»[1].

فالكلمة الكاذبة كذب ..

والموقف الباطل كذب ..

والمنهج الباطل الذي يتخذه الإنسان عمومًا كذب: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]، فهم كاذبون في إنكارهم البعث أو الرسالة وكاذبون في شركهم، ﴿ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٦]، ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [الكهف: ١٥].

وكاذبون في طريقة حياتهم .. وخصوصًا من عرف الحق فهو افتراء كذب على الله.

وأما التزام الدين وتطبيقه وحمله والثبات به في مواقف المحن والإشهاد .. فهذا هو الصدق: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥].

يقول البيضاوي: «﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ اللام للجنس ليتناول الرسول والمؤمنين لقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ وقيل هو النبي ﷺ والمراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾»[2].

وأمر الله أمرًا مباشرًا بالصدق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) الصارم المسلول، جـ ١، ص ٥٢٣.
(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٦٧.

وهذا الأمر يشمل كل هذه المواقف .. والآية بنفسها جاءت تعليقًا على الثلاثة الذين خُلفوا، وسواء كانت أمرًا لنا بالتزام الصدق في الكلمة كما صدقوا أن لا عذر لهم .. أو أمرًا لهم ولنا في الصدق في المواقف بعدم التخلي عن نصرة هذا الدين في أي وقت مهما كان العذر .. فالأمر يشمل الجميع، وكل ألوان الصدق.

فمهما تكلمنا عن عدم الجدية وعدم نصرة الدين وعن الخيانة في المواقف وفي الطريق الذي يسلكه العبد لنفسه أو للدعوة ـ في زعمه ـ كل هذا الكلام لن يجدي كما تجدي هذه الآيات وما عالجته.

* * *

• مأخذ آخر علاجًا لافتقاد الصدق وهو آية واحدة من كتاب الله قد لا يدرك الكثير أنها مباشرة في الصدق، وهي رأسٌ فيه، وهي علاج ناجع لمن تدبرها:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، يشري يعني: يبيع.

وهذا هو الصدق: أن يبيع المرء نفسه ـ كاملة ـ لله ابتغاء مرضاته، ومعنى هذا ألا يبقى جزء في نفسك إلا وقد بعته لله فلا يبقى من نفسك لنفسك شيء، ثم إن الله تعالى غني عنك فيعيد كل هذا لك ولمصلحتك وخيرك في الدنيا والآخرة، وأنت الذي كسب .. ففي النهاية تشتري نفسك.

والبداية أن تشريها (تبيعها لله) وخاتمة الأمر أنك اشتريتها وفككت رهانها: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، فهي مرهونة ومحتبسة بعملها فأما المؤمن فقد فك رقبته واشتراها.

يقول البيضاوي: «﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾، مرهونة عند الله، مصدر كالشكيمة، أطلقت للمفعول كالرهن، ولو كانت صفة لقيل: رهين ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم»[1].

ولا سبيل لفك الرقبة وشرائها إلا ببيعها جملةً لله.

ثم إن البيع لله في حد ذاته هو الفوز العظيم فهو أولى بنا منا، فمن باع لله جزءً ما من نفسه وأبقى جزءً فلا بد له أيضًا من بذله .. لكن لغير الله فلمن يبذله إذًا؟.

للدنيا؟ ما أخسرك ..

للشيطان؟ إنه عدوك يا هذا ..

لهواك؟ خيبة لك. أوَ ينفعك؟ إنه يُرْديك ..

* * *

الصادق أراح نفسه وباعها جملةً لربه ..كلمة وموقف وطريقة حياة.

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٤١٧.

• وهناك مأخذ آخر لعلاج هذا ـ فالتزهيد في الدنيا دافع للصدق وشراء الآخرة: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

ولما كانت هذه الدار دار الآفات والنقائص دعانا ربنا سبحانه بعدها إلى دار السلامة من كل آفة ومن هذه النقائص فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥].

• الترغيب في الآخرة دافع للصدق فينظر في آيات الترغيب.

• والترهيب من النار دافع للصدق ليهرب منها.

• واحترام الإنسان لنفسه دافع للصدق: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالإنسان لا يحافظ على تكريم الله تعالى له إلا إذا التزم المنهج الذي أنزله له مَن كرّمه.

ومآخذ أخرى مفتوحة في هذا الكتاب .. ولينظر الإنسان أيها أنجع لنفسه وأيها يجد نفسه متجاوبة معها ومتأثرة بها .. أيها يبلغ إلى أعماق نفسه فليلزمها وليلح في طلب الاستشفاء بها، (ولْيكُن هِجّيراه: لا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٠، ص ١٣٧.

الرياء

مجرم هو .. ومسكين! حابط العمل خائب السعي .. يُطرد يوم القيامة نحو من عمل من أجلهم .. فهل سيجد عندهم شيئا؟.

ذلك المتشتت القلب والزائغ العين والباحث بأذنه عن الثناء البشرى .. يرتوي قلبه بثناء الخلق غير مهموم برضا الخالق .. تجده غير موضوعي بل سمة عمله البهرجة والطبل والزمر ليسمع الخلق به.

مصيبة لو عمل ولم يعلم به أحد .. ومصيبة أخرى لو عمل ولم يشكره الناس أو لم يثنوا عليه.

يعاقبه الله تعالى بالهم والضعف وقلة التوفيق مع الخذلان مما يطلب من الناس .. وإن ناله فنكدًا ! ويقال له يوم القيامة قد رضيت بثناء الناس وعملت لهذا، وقد نلتَه .. فماذا تطلب اليوم؟.

لا يبحث قلبه عن سمع الله به وبصره إياه وعلمه به .. غير مهموم بإرضاء رب العالمين طالما رضي الخلق ولا ينشغل ولا يهتم ولا يخاف من سخطه تعالى بحيث يشغل قلبه.

يقول أهل العلم عن هذا الرياء: «وأما الشرك في الإرادات والنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله تعالى، أو نوى شيئًا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته»(١).

ويقول كذلك أهل العلم: «أما إذا كان لا يأتي بأصل العبادة إلا رياء ولولا ذلك ما صلى ولا صام ولا قرأ القرآن فهو مشرك شركًا أكبر، وهو من المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٢- ١٤٦].

وصدق فيهم قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(٢).

والشرك الأصغر لا يخرج من ارتكس فيه من ملة الإسلام ولكنه أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر(٣).

مشكلة المرائي عدم تصوره الآخرة وعدم تصوره تصورًا كاملاً معنى لقاء الله تعالى، ولم يمتلئ قلبه بإرادة وجه الله تعالى واليقين به بحيث يعظم ربه في قلبه عظمة يحتقر معها أن يلتفت إلى أو يريد ما سواه.

* * *

والعلاج والدواء هنا في كتاب الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل على غير هذا حابط لا ينفع صاحبه.

---

(١) الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن، منهاج التأسيس والتقديس.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.
(٣) فتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٦ – ٥١٨.

لكن إن كان من نخاطبه بهذا الكلام لا يهتم بالآخرة فلن ينتفع ولن ينجع فيه شيء من هذا.

ولهذا فأول الدواء في أول الجملة: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ فإن كان الإنسان لا يرجو هذا اللقاء (بمعنى لا يأمل فيه أو بمعنى لا يخافه على وجهي التفسير وكلاهما حق) فكيف سينتفع؟.

فلينظر أحدنا كثيرًا كثيرًا في هذه الكلمة: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ فإن لم تكن موجودة كما ينبغي فهنا الخلل وأصل الداء وإصلاحه أول العلاج.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٤ - ٢١].

فالذي ينجو من النار التي تلظى التي أنذرها الله تعالى خلقه هو الأتقى الذي له ظاهر وباطن:

أما **الظاهر** فهو: ﴿ يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾، فهذا في الصدقة .. وكذلك غيرها؛ فهو تمثيل للعام ببعض أفراده.

وأما **باطن نفس هذا العمل** فهو: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وكان هذا العمل بظاهره وباطنه من أجل الهروب من هذه النار التي تلظى فلو لم يكن منشغلاً بها وبالهروب منها ولو لم يكن مستحضرًا لها فلن يكون هناك هذا العمل والإخلاص.

ثم إن المقصود بالآيات أن عمله على هذا المنوال في الصدقة وفي غيرها .. ولهذا قال بعدها: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾، وابتغاء وجه الله تعالى لا يكون إلا من قلب ممتلئ .. ممتلئ باليقين بالله تعالى، وممتلئ بإرادة وجهه والبحث عن رضاه والهم الدائم بهذا، والخوف والرعدة من سخطه هو لا سخط غيره.

فهو مشغول بسمع الله به ونظره له وعلمه به ورضاه أو سخطه .. وقلبه فارغ عن غير هذا .. هذا هو الإخلاص ولوازمه التي تنتجه .. كما قال أبو بكر لما سمعه الرسول ﷺ يصلي بالليل وصوته خافت فسأله ﷺ لم؟ فقال: قد أسمعتُ من ناجيتُ[1] ..

فمن نظر إلى غير الله تعالى واهتم به فلينظر في مدى لقاء الله تعالى في قلبه وما يمثله عنده من اهتمامات، ولينظر في يقينه بالله تعالى وتقدير عظمته تعالى.

ولهذا قد نعلم لماذا هذا الربط في سورة الماعون بين التكذيب بيوم الدين وبين الرياء: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [سورة الماعون].

فإن كانت في المنافقين رأسًا فواضح الربط بين الرياء وبين عدم الإيمان بيوم الدين وبين سوء الخُلُق وسوء أداء العبادات.

وإن كان قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ .. ﴾ الآيات، في عصاة المسلمين فلهم نصيب من عدم تصور يوم الدين التصور الكامل الذي أداهم إلى المراءاة في العبادات وسوء الخُلُق مع الخَلْق، ولهم نصيبهم من هذا الربط بحسبه.

---

(١) رواه أبو داود، قال الألباني: صحيح.

وانظر إلى هذا الربط كذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨].

فمشكلته في ريائه وارتباط هذا الرياء بأمرين: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ﴾ فهو لا يقدر الله تعالى حق قدره، ولا يتصور الآخرة: إما عدم إيمان بها من الأصل أو ضعف هذا التصور .. فكلٌ بحسبه.

وكلما ضعف أحدهما تشتت القلب وتفرق شعاعًا بين أغراض الدنيا القذرة.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١ - ٢]، قال بعض السلف في هذه الآية: لم يقل تعالى ليبلوكم أيكم أكثر عملاً بل قال أحسن عملاً.

وتفسير الحُسْن دائمًا بأمرين: موافقة الشرع وإرادة وجه الله تعالى ولهذا فهو نفس تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

فإسلام الوجه لله تعالى هو التوحيد الذي هو أصل الدين وأصل الإيمان، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ يعني: موافقة الشرع في الأعمال مع إخلاص النية في العمل لله تعالى رب العالمين.

والمرائي تعيس لم يذق حلاوة الطاعة ولا حلاوة الإخلاص وطعمه الذي يفوق كل ما في الدنيا .. ولو ذاق للزم.

فحياة القلب لا تكون .. والقلب لا يعمر إلا بالتوجه لله والبذل من أجله وابتغاء وجهه.

ولا يتحقق هذا كما يقول ابن القيم: إلا بنفي ما سواه .. وهذه قاعدة غاية في الأهمية، أن العمل والتعبد وتفصيل أنواع التعبد بالقلب وما يستلزمه من عمل الجوارح لله تعالى، لا يتحقق إلا بنفي هذا عما سوى الله تعالى.

ولنا عودة مع هذا الأمر في (جماع الدواء) وتجريد التوحيد في آخر البحث.

وقد ذكر تعالى صفات من أنعم عليهم بالجنة أن صفاتهم ليست بظاهر العمل فقط بل أثنى تعالى عليهم بأعمال هي بنفسها عظيمة لكن اقترن بها عمق في الباطن كان مع ظاهر العمل هما مناط النجاة: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥ - ١٢].

وانظر كذلك والحظ هذا الربط بين الإخلاص (لوجه الله) واستحضار الآخرة ومعايشتها ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾: ﴿ نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾، فهذا الربط المطّرد في كل موطن نؤكد عليه لأهميته، لأنه العلاج والدواء الناجع .. فهكذا عرض الله تعالى الأمر في كتابه.

وأكد تعالى أهمية الإخلاص وابتغاء وجهه، فأمر به أمرًا في صورة الخبر توكيدًا له فقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، يعني: هذا هو الواجب وما ينبغي أن يكون عليه حالهم، أو هو وصف وثناء على الصحابة لا بمجرد الإنفاق بل بأنه لا يُبتغى به إلا وجه الله تعالى .. فعلى الوجهين الدلالة قائمة.

ومن أراد المزيد فليراجع كتاب الله .. الشفاء من كل داء .. وهذا من أعظم الداء وأخطره.

ونؤكد أخيرًا على الربط بين الإخلاص وبين:

أولاً: اليقين في الله تعالى وتقديره حق قدره.

وثانيًا: معايشة الآخرة واستحضارها وتصورها تصورًا كاملاً يدفع العبد للعمل للقاء رب العالمين.

ومن عانى من هذا الداء فليتناول الأمر هكذا كما عرضه القرآن العظيم.

وفي النهاية تجد المخلص موضوعيًا .. هادئًا يعمل لله تعالى فلا يهمه علم الناس به أو سمعهم به .. ولا يهتم بأن يلفت إليه الأنظار .. ناظرًا في عمله وقيامه بالتعبد وإحسان وإتقان العمل المقرب لله تعالى والمفيد لنفسه ولأمته وناظرًا أن يجد هذا في الآخرة حتى لو لم ينتج في الدنيا ـ أو على الأقل في حياته ـ ما كان يأمله من نفع أمته.

ولكن هنا قاعدة: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فمن عمل لله تعالى سيبقى عمله هنا في هذه الدار وهناك يوم يقوم الأشهاد .. **ولا ينتهي عملٌ خالص أُريدَ به وجه الله تعالى بل سيثمر لكن كما أراد الله وفي الوقت الذي يعلمه الله وعلى الوجه الذي يريده الله تعالى**، ومما قيل: (لو أن عبدًا تنفس نفسًا خالصًا لوجه الله تعالى لبقى أثره وبركته إلى يوم القيامة).

فانظر إلى دعوة إبراهيم للناس بالحج ممتثلاً مخلصًا، ولم يكن في المكان أحد لكن عمل المخلص يتولاه الله تعالى فوصّل الله تعالى القول والنداء إلى النطف في أصلاب آبائها، فمن لبى في ظهر أبيه يومئذ كتبت له التلبية في الدنيا.

وعلى هذا المنوال اعمل، وقِسِ الأمور هكذا أنك لله تعمل وعلى الله تعالى نتيجة العمل وتوصيل الخير.

حتى أنه قد ينتج ما لم يكن في حسبانك لأن الذي تولى الأمر ربُّ العالمين؛ فبحسب شدة الإخلاص والتجرد من إرادة ما سوى رب العالمين تكون بركة الأمر وبقاؤه..

ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل، والله المستعان.

* * *

الغِيبــة

في واقعنا المعاصر محترفوا امتلاك نواصي الطرق وأحاديثها .. حتى وهم في بيوتهم لا اهتمام لهم ولا شغل. كالضباع تبحث عن جثث ميتة لإخوانهم فيقعون في لحومهم وأعراضهم .. يتمنون أن يسقط أحد فيظفرون به ينهشونه.

يشتهون الوقوع على عورة المسلم .. هؤلاء هم المغتابون.

فرغوا من أي اهتمام كبير أو هدف ذي شأن أو نصرة لدينهم .. سلم منهم اليهود وسلم منهم الصليبيون وسلم منهم الإباحيون ولم يسلم منهم إخوانهم .. يجد أحدهم شهوة في لوْك سيرة أخيه وعرضه.

والتعريض أو التصريح بعيبه شهوة لا يقاومها تُقضي فيها ساعات طويلة. ويكفي منها دقيقة وأقل ليأثم!.

لو قضى وقته لإصلاح عيبه لشُغل ولم يجد وقتًا ولم يكفه عمره.

ولو شغله لنصرة هذا الدين لاحتاج أعمارًا إلى عمره، ولزكت نفسه ونفعها.

ولو تعلّم خيرًا لرأى الأمور في الدنيا والآخرة على ما هي عليه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠]، يعني: زوال هذه وبقاء تلك .. ولعلم حقائق من الهدى كنوزًا يجتنيها.

فلمن يجد في نفسه شهوة لهذا .. وعلم شيئًا من هذا عن نفسه .. ولا يقل أحد ليس بي شيء من هذا.. فمن يكذب على نفسه لن ينتفع ولن يزكو .. وسيبقى مرضه معه بين جنبيه يدخل به قبره فيهلك .. فمن يخادع لن يخدع إلا نفسه ولن يضر سواها.

أما من صدق مع نفسه وكان واضحًا معها مريدًا لتزكية نفسه، فلينظر .. فإن كان به شيء من هذا أو ميل له فهذا علاجه: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكها بغيبته وذمه متحليًا بذلك شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.

ولما كان المغتاب محبًا لذلك معجبًا به شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق»[1]. ولا تعليق بعد كلام هذا الإمام عليه رحمة الله.

ويقول الأستاذ سيد قطب: «﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، ثم يعرض مشهدًا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه .. ميتًا .. ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئًا أن يبادر بالتوبة تطلعًا للرحمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويتشدد فيه رسول الله ﷺ متمشيًا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

في حديث رواه أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي وصححه.

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر عن أبي حذيفة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت للنبي ﷺ: «حسبك من صفية كذا وكذا». قال غير مسدد: تعني قصيرة. فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانًا. فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا».

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[2].

* * *

هذا مأخذ.

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٧٠.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن.

ومأخذ آخر: أن جعل الله الغيبة والطعن في الناس من شيم الكفار لا تليق بمؤمن: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾، يقول ابن كثير رحمه الله: «الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني: يزدري الناس وينتقص بهم وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾، قال ابن عباس: همزة لمزة: طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه، وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمزة باليدين والعين واللمزة باللسان وهكذا قال ابن زيد وقال مالك عن زيد بن أسلم: همزة لحوم الناس»[1].

فعندما يقرن الله تعالى خُلُقًا بالشرك فإيمان المؤمن يدفعه لكراهة هذا ويأبى أن يقترن به أسلك أيُ المأخذين تحب أو كليهما، المهم داوِ داءك.

* * *

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٧٠٩.

الحسد

ألمٌ يجده الإنسان في نفسه.

سبب الألم: رؤية بعض النعم على أشخاص آخرين.

كيف يزول ألم الحاسد؟ أن تزول النعمة فيستريح هو.. وإلا .. فقد يجد في قلبه بغضًا وحقدًا يتعدى به على المحسود بعينه أو بلسانه أو بخذلانه أو بعمله. وقد يصل للكفر (كاليهود مع رسول الله) أو القتل (كابن آدم مع أخيه).

ويبقى الألم مشتعلاً في نفس الحاسد حتى ينشغل عن نعم ربه عليه.

رأينا إبليس يعصي أول معصية وهي الكبر بأول سبب هو الحسد .. فيكفر بربه.

ورأينا اليهود كفروا: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ورأينا من يقع في غيره، وغيره لم يفعل له ما يقتضي وقوعه فيه أو بغضه له سوى حسده إياه .. وما للآخر ذنب سوى أن الله أنعم عليه.

ورأينا من يتمنى سقوط غيره أو ألمه .. أو تدميره. بل قد يسعى إلى هذا. ورأينا من يخذل غيره في وقت يحتاج فيه للذب عن عرضه .. أو يعتدي عليه بنفس هذا الدافع الخبيث.

وإن دق .. فشيء من هذا في نفوس الناس .. والمثل العربي: (ما خلا جسد من حسد).

والكثير يخشى من أن يُحسد .. لكن ليس بنفس الدرجة يخشى أن يَحسد غيره فيهلك بآفة ترديه.

* * *

والخطأ في البداية .. من النظر إلى الغيْر .. هنا تجب المعالجة .. من هذه اللحظة منعًا لما بعدها.

وإنكار كل منا أن أي شيء من هذا ليس في نفسه .. نحن نرجوا أن نكون هكذا ـ لكن: (ما خلا جسد من حسد) كما أشار ابن الجوزي.

يقول ابن الجوزي: «فصل: الحسد طبيعة في الإنسان فقومها.

رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون: لا يحسد إلا شرير يعادي نعمة الله ولا يرضى بقضائه ويبخل على أخيه المسلم.

فنظرت في هذا فما رأيته كما يقولون، وذاك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يحب أن يرتفع عليه، وود لو لم ينل صديقه ما ينال أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه، وهذا معجون في الطين ولا لوم على ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل.

وكنت أظن أن هذا قد وقع لي عن سري وفحصي فرأيت الحديث عن الحسن البصري قد سبقني إليه.

قال: أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال: أخبرنا ابن النقود قال: أخبرنا المخلص قال: حدثنا البغوي قال: حدثنا أبو روح قال: حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن الحسن قال: ليس من ولد آدم إلا وقد خلق معه الحسد!! فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء!!»[1].

---

(١) صيد الخاطر، جـ ١، ص ٤٣٠.

والعلاج هنا في كتاب رب العالمين. وهو النظر إلى عدة آيات:

أولاً: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فالآية تنص على أن القسمة مقصودة، وأن رفع الناس درجات وتفاوتهم في هذا مقصود رباني بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ممن رفعه وممن لم يرفع فهو: ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، فيجب أن يشكر كل منهما ربه ويحمده مع حاله الذي هو فيه.

ثم أعقبها تعالى ببيان هوان الدنيا كلها وهوان الأمر كله فقال: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

ومعنى الآيات أن من هوان الدنيا على الله تعالى أنه لولا أن يُجمع الناس كلهم على الكفر لجعلنا لمن يكفر بيوتًا لها سقف ومعارج "سلالم" من فضة ومن ذهب، فإنها كلها لا تساوي شيئًا .. وهذا العطاء في ميزان الله تعالى ليس بشيء.

إذن فالقسمة مقصودة وعلى العبد أن يقبل قسمة رب العالمين واثقًا فيه، محسنًا للظن به، مطمئنًا لحكمته، حامدًا إياه على ما أعطى وعلى ما منع، ففي المنع من النعم ما لا يعلمه العبد، بل يعلمه الله تعالى له، كمن يمنعه الله تعالى إبعادًا له عن معصيته، ومن هنا قال بعض السلف: (إن من العصمة ألا تَقْدر).

ونفس المعنى في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فالعطاء والمنع أيضًا مقصود، والقسمة ربانية، ورفع الدرجات في المال أو الجمال أو الصحة أو العافية أو القوة أو العلم أو العقل أو الذكاء أو الشهرة أو المساكن أو الزيجات أو الأولاد .. كل هذا مقصود لحكمة يُحمد ربنا عليها .. يجب أن يحمده عليها من أُعطي ومن مُنع .. ولا يعلم الخلقُ مرامي حكمة الله تعالى .. لكن في آية الزخرف الأولى أن من حكمة هذه القسمة أن يكون بعضهم لبعض سُخريًا .. لتقوم الحياة.

يقول النسفي في تفسيرها: «﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ ﴾ فيه استهانة به ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي: رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي: من أحدهما، والقريتان مكة والطائف، وعنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة وبعظيم الطائف عروة بن مسعود الثقفي، وأرادوا بالعظيم من كان ذا مال وذا جاه ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيمًا.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي: النبوة، الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾، ما يعيشون به وهو أرزاقهم في الحياة الدنيا، أي: لم نجعل قسمة الأدْوَن إليهم وهو الرزق فكيف النبوة، أو كما فضلت البعض على البعض في الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشاء، ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالى والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم

(١) كما مر شرحها.

ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويصلوا إلى منافعهم هذا بماله وهذا بأعماله ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: النبوة أو دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا، ولما قلل أمر الدنيا وصغرها أردفه بما يقرر قلة الدنيا عنده فقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه ﴿ لَّجَعَلْنَا ﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ﴾ أي: لجعلنا للكفار سقوفًا ومصاعد وأبوابًا وسررًا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفًا أي: زينة من كل شيء، والزخرف الذهب والزينة، ويجوز أن يكون الأصل سقفًا من فضة وزخرف أي: بعضها من فضة وبعضها من ذهب»[1].

وأما في آية الأنعام: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ففيها زيادة: أن هذا للاختبار .. اختبار من؟ اختبار من أُعطي بما أُعطي، واختبار من مُنع بمنعه عنه، واختبار لمن رفع برفعه، والآخر بحجبه عنه.

يقول تعالى حاكيًا عن سليمان عليه السلام مقررًا أن العطاء للابتلاء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٨ - ١٩].

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

بل وأكثر من هذا أن العبد المعطَى مختبر بما أعطي لينظر فيه أيشكر أم يكفر، ويختبر بمنع غيره لينظر إليه أيحتقر ويزدري ويستكبر؟ أم يتواضع ويشكر ويعلم أنه هو مختبر بالعطاء وغيره بالمنع وكلاهما سيسأل يوم القيامة وليس في هذا إكرام ولا في ذاك إهانة: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

ويختبر من منع ـ أي شيء مما قلنا ـ بمنعه ليصبر ويحسن الظن بربه ويرجوه ويثق فيه ويضرع إليه ويفرغ باله وهمه لربه ـ حتى لكأن المنع عطاء آخر له ـ هذا جزء من الاختبار. ويختبر كذلك بعطاء غيره لينظر إليه أيحقد عليه ويحسده ويغار أم يرضى بقسمة الله ويدعو لأخيه. كل هذا هو جزء من معنى قوله تعالى في الآية الجامعة: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقد جاءت الآية عقب طلبهم الجنات في الأرض تكبرًا وسخرية من رسول الله وبشريته .

فأنت مختبر بعطائك وحرمان غيرك.

ومختبر بحرمانك وعطاء غيرك.

---

(١) تفسير النسفي، جـ ٤، ص ١١٣.

وليكتمل المعنى انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، فإن ما خُلقنا له هو التعبد وإقامة الأمر الشرعي كل بحسبه، وكل في مكانه وكل بحسب ما أعطي، ويجب أن يكون هذا هو همك.

قال أبو نعيم: «حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ثنا أحمد بن يوسف بن الضحاك ثنا يوسف بن مصرف ثنا زيد بن الحباب عن جنيد بن العلاء بن أبي وهرة عن محمد بن سعيد عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى له أموره وجعل غناه في قلبه، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله تعالى إلا جعل الله عز وجل قلوب المؤمنين تفد عليه بالود والرحمة وكان الله إليه بكل خير أسرع»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ .. ﴾ قال: يقول الله ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»[2].

وهذا هو معنى التفرغ أو بعض معانيه. فتخرج في النهاية بنتيجة مؤداها (**أنه مطلوب منك أن تتعبد لله بما أعطيت**) ،(**وغيرك متعبد بما أعطي**).. فالمهم أن نقوم بما أُمِرْنا بحسب الحال الذي نحن عليه.

فالصبر خطاب لمن منع عن شيء .. مع الشكر لما أعطي.

والشكر خطاب لمن أعطي .. مع الصبر لما حجب عنه ومع الصبر أيضًا على ما أعطي.

والقضية كلها اختبار للتعبد فقط .. حتى الموت.

فليس في الدنيا عطاء أو جزاء توفية ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلا يخلو أي عطاء في الدنيا أبدًا من الاختبار كما أنه ليس في الدنيا تمام العقوبة.

فانظر إلى سليمان ماذا قال لما وجد عرش بلقيس أمامه في أقل من طرفة عين: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

هذا هو العلم وهذا هو القلب العابد.

ولما سمع وفهم ـ وكلاهما معجزة ـ كلام ولغة نملة تضرع لربه تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

هذا هو العلم والتعبد .. ومن هنا جاءت كلمة عمر بن الخطاب ﷺ عندما قال: (الغنى والفقر مطيتان لا أبالي أيهما ركبت) ففهمه من هذا، أنه مُتعبَد إما بالغنى (والعطاء عمومًا من علم أو ذكاء أو قوة أو صحة أو جمال أو مسكن أو وجاهة ومحبة في قلوب الخلق أو ..) فله عبودية من الشكر والثناء على الله وصرفه في أوجهه وعدم احتقار الآخرين وتجنب الكبر والازدراء وتجنب الترف المُنسي .. ومُتعبَد بالأخذ بنية صالحة وأن يكون المال عونًا على الطاعة وفي هذا جاء الحديث:

---

(١) حلية الأولياء، جـ ١، ص ٢٢٧.

(٢) الترغيب والترهيب، جـ ٤، ص ٥٥.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرحمن ثنا موسى بن علي عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص يقول بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني فأتيته وهو يتوضأ فصعّد في النظر ثم طأطأه فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة. قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال يا عمرو: **نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[(١)].

وفي الفقر (والحرمان عمومًا من أي شيء) يخاطب بالصبر والتعفف وحسن الظن بالله والثقة فيه والاستغناء به والتفرغ لربه وانتظار الفرَج ..كذلك بقية النعم على نفس المنوال.

فإنما نكتة الأمر وزبدته أنما هو سير إلى الله .. وبحسب المطية التي يختارها الله لك تكون المهمة المطلوبة، وفي النهاية: عطاء الدنيا ومتعها ليس بشيء .. وكذلك المنع.

قال الإمام مسلم: حدثنا عمرو الناقد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة[(٢)] ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»[(٣)].

فلم يَر من أُعطى الدنيا كلها أنه أعطي شيء لمّا لقى رب العالمين وذاق عذاب عمله، ولم يَر من حُرم من الدنيا أعظم الحرمان الدنيوي أنه قد حرم شيئًا لمّا لقى الله تعالى وذاق طعم مثوبته.

وأخيرًا آية القصص: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: ٦٨]، وفيها وجهان:

الأول: أن ﴿ مَا ﴾ نافية ولذا فالوقف على قوله تعالى: ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ وقف لازم. ويكون معنى الخيرة من الاختيار.

ويكون معنى الآية أن الله له الخلق وله الاختيار المطلق فيصطفي من يشاء للرسالة وليس لهم الاختيار لمن يكون رسولاً كما قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

الثاني: أما على الوجه الآخر فـ ﴿ مَا ﴾ موصولة بمعنى (الذي) وتكون جملة واحدة بلا وقف فتكون هكذا ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ بمعنى أن ربك يخلق ما يشاء .. ويختار الذي لهم فيه الخيرة يعني: الخير .. ويشهد لهذا المعنى الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام عن البغوي يقول رحمه الله في الفتاوى: «كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك .. إني أدبر عبادي .. إني بهم خبير بصير»[(٤)].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٤، ص ١٩٧. تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) **فيصبغ في النار صبغة**: أي يغمس غمسة. بؤسًا: البؤس هو الشدة.

(٣) صحيح مسلم، جـ ٤، ص ٢١٦٢.

(٤) مجموع الفتاوى، جـ ١١، ص ١٢٠.

يقول البيضاوي: «﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي: التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسًا، والأمر كذلك عند التحقيق فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها.

وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

وقيل ﴿ مَا ﴾ موصولة مفعول لـ ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ والراجع إليه محذوف والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي: الخير والصلاح»[1].

ومن استحضر هذا وعلم ووثق أنه لا يعلم لنفسه الخير ولا يحصيه لها فكم من شيء يظنه خيرًا لو ناله، فيظهر العكس ويحمد الله تعالى أنه لم يستجب له، وفي الحديث أن الناس يسألون رسول الله ويلحون فيعطيهم رسول الله ما سألوا فيخرج يتأبطها نارًا قال الصحابة فلمَ تعطيهم يا رسول الله؟ فقال: «يسألوني ويأبى الله تعالى عليّ البخل»، وفي الآية: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإلى هذا المعنى أشار ابن القيم أن العبد يسأل ربه من الدنيا أمورًا يعلم الله تعالى أنها شر له وأنه لا يطيقها فيمنعه إياها رحمة به.

ويقول شيخ الإسلام: «وفي الحديث إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب، وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في كتاب "الزهد" يقول الله تعالى: «إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفرًا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى»[2]، الحديث الرائع.

وروى الترمذي قال: «حدثنا محمد بن يحيى حدثنا إسحق بن محمد الفروي حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمارة بن غزية عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان: أن رسول الله ﷺ قال إذا أحب الله عبدًا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء»[3].

وأحيانًا يلح العبد فيعطيه الله تعالى إياها فيهلك .. ومن هنا كانت الاستخارة في الأمور من سعادة ابن آدم قال البيهقي: وأخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي أنا أبو الحسن بن صبيح ثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا أبو عامر العقدي ثنا محمد بن أبي حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد يعني: ابن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما قضى الله عليه ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله وسخط بما قضى الله عز وجل»[4].

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٠١.
(٢) مجموع الفتاوى، جـ١٠، ص١٣٠.
(٣) سنن الترمذي، جـ ٤، ص ٣٨١. قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٤) شعب الإيمان، جـ ١، ص ٢١٩.

والحسد مذموم ومنهي عنه في أمور الدنيا. كتحاسد الناس على الأموال والصحة والمساكن والزوجات والأولاد والمراكب والعلوم والذكاء والقبول والمحبة في قلوب الخلق وغيرها كثير.

ويكثر بين النساء فتتحاسد النساء على قسمة الله تعالى للجمال بينهن أو الغني أو الزيجات أو الأولاد أو المساكن أو حتى أثاث البيوت. فمن بعضهن الحسد، ومن البعض الازدراء والاحتقار والترفع بما أعطيت ـ إلا من رحم الله ـ وهذا وحده قد يدفع الأخريات لهذا التحاسد.

وكذلك الحسد في أمور الدين منهي عنه أصلاً وفي هذا نزلت آية النساء: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ ﴾ [النساء: ٣٢]، وأسباب النزول:

١ - **سبب ديني:** يقول ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: قلت: يا رسول الله فذكره.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ثم أنزل الله: ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ الآية.

وروى ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة ومجاهد أنهما قالا: أنزلت في أم سلمة وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن شيخ من أهل مكة قال: نزلت هذه الآية في قول النساء: ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون ونغزو في سبيل الله عز وجل، وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثني أحمد بن عبد الرحمن حدثني أبي حدثنا الأشعث بن إسحاق عن جعفر يعني: ابن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله للذكر مثل حظ الأنثيين وشهادة امرأتين برجل فنحن في العمل هكذا إن عملت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا ﴾ الآية، فإنه عدل مني وأنا صنعته. وقال السدي في الآية: فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك ولكن قال لهم: سلوني من فضلي قال: ليس بعرض الدنيا».

٢ - **سبب دنيوي:** «وقد روي عن قتادة نحو ذلك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله فنهى الله عن ذلك ولكن ليسأل الله من فضله، وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء». فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا».

يقول ابن كثير معلقًا: «﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: في الأمور الدنيوية وكذا الدينية أيضًا لحديث أم سلمة وابن عباس ..»(١).

وعلى هذا فيحذر من التحاسد بين المتدينين أنفسهم لفضل علم على الآخر أو عقل .. أو قبول ومحبة في القلوب أو فَهْم أفضل من الآخر .. أو قدرة على الدعوة أو ..

وبين حفظة القرآن .. على نداوة الصوت ومحبة الخلق، وبين العبّاد كذلك .. وهو أمر عجيب لكن الدنيا كاللص السارق، فللأعمال الصالحة أثرها الأخروي، وهذا ما يرجي .. وكذلك لها أثر دنيوي يعطيه الله تعالى لعبده كعاجل بشرى له كالثناء الحسن كما نص عليه الحديث .. ليعينه على المضي قدمًا والاستمرار .. وبعض النفوس تلتفت إلى هذا وقد تتعطل بسببه وقد تنقطع التفاتًا لهذا.

ومما ينبغي أن يُعلم أنه ما من عطاء في الدنيا حتى الثناء الحسن وآثار العمل الصالح التي يراها صاحبها إلا وفيه عنصر الابتلاء ومسحة منه لينظر إلى استعماله .. فإن أخذ على وجهه تعبدًا كان عونًا أكثر وإلا نقصت الرتبة بهذا أو تعطل أو انقطع.

وانظر إلى مدح الله تعالى لنبيه على التزامه بما أمر وعدم تعديه إلى ما لم يؤمر. ففي معراجه ﷺ إلى العلى .. إلى السموات .. لما وصل إلى سدرة المنتهى أُمر أن ينظر إلى أمور فنظر إليها، ولم ينظر إلى ما لم يؤمر، فإنه لا يفعل إلا بأمر، فمدحه تعالى بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

وانظر إلى أمر الله لموسى عليه السلام لما سأل الرؤية فأعقبها بقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، يعني: الاقتصار على ما أمر.

هكذا ينبغي أن يكون التعبد ومأخذ الأمور.

ومن نظر إلى القرآن عرف حده الذي ينبغي عليه التزامه.

* * *

فخلاصة الأمر أن كلا منا مطلوب منه في مدة حياته تحقيق التعبد لله تعالى، ولكل منا وجه في التعبد غير الآخر، فبحسب ما أُعطينا وما حُرمنا علينا تكاليف محددة، وأن نحفظ مقاماتنا، فهذه عبادة في ذاتها: أن يحفظ الإنسان مقامه كما حكى تعالى عن الملائكة قولهم: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾، وأن ننظر إلى التكاليف فيما أُعطينا لتحقيقها مع الخوف والقلق من عدم الوفاء .. وليس الركون إلى عطاء الدنيا الذي محله الابتلاء؛ فنخشى أن لا نوفي شكر النعم فتعدد علينا يوم القيامة ونُسأل عنها فيطول المقام وقد لا نتخلص من السؤال فنهلك. ففي هذا القلق .. وأن ننظر إلى من حرم ما أُعطينا فلا يُزدرى ولا يُحتقر ولا نتكبر عيه بل وندعو له بالخير. ونظن أنه خير منا، فلعل الله تعالى أعطاه ليرفعه بصبره درجات قد لا نبلغها ولعله تعالى خفف عليه الحمل ليخفف عليه سؤال يوم القيامة.

* * *

وأن ننظر فيما حُرمنا؛ ففيه الظن الخيّر بالله تعالى أنه ما حرمنا إلا ليعطينا: عطاء من وجه آخر خير منه في الدنيا، وعطاء خيّر كذلك في الآخرة.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٦٤٨.

وأن نتصبر بالله تعالى .. وأن تستغني قلوبنا بالله تعالى عن كل مخلوق فلا نلتفت إليه .. ونتعفف عن سؤال الخلق فلا نستذل لأحد ولا نبذل ماء وجوهنا لأحد.

وأن ننتظر الفَرَج من ربنا ونسأله إياه، ففي الحديث أن الله تعالى يحب عبده الذي يحب الفَرَج، وفي الحديث الآخر أنه تعالى يحب عبده الذي يسأله الفَرَج، وفي الأثر أفضل العبادة انتظار الفَرَج. وذلك لما يتضمنه هذا من التعبد باتخاذ الأسباب، مع تعبد القلب بحسن الظن به تعالى والثقة والرجاء فيه سبحانه.

«وقد روى الترمذي وابن مردويه من حديث حماد بن واقد سمعت إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل وإن أفضل العبادة انتظار الفرج»، ثم رواه من حديث قيس بن الربيع عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل، وإن أحبّ عباده إليه الذي يحب الفرج»» [1].

وأن لا ننظر إلى من هو فوقنا في الدنيا .. إلى من أُعطى، فكف النفس عن النظر إليهم عبادة، وعدم الوجد في القلب مما أُعطوا عبادة .. وأن نعلم أنهم مبتلون مختبرون بما أُعطوا .. ومن الخير أن نعوّد أنفسنا الدعاء لهم بظهر الغيب بما نحب أن ندعو به لأنفسنا لو كان عندنا ما عندهم: من دوام النعمة وحفظها والنجاح في شكرها، وزيادتها.

وذلك لأن الحسد خاصة الشيطان، والدعاء بظهر الغيب خاصة الملائكة فنداوى هذه بتلك.

فالملائكة تدعو لنا ولا نعرفها فإن دعوت لأخيك بظهر الغيب رد ملك يقول: (آمين، ولك بمثل) .. فيدعو لك بما دعوت لأخيك بمجرد سماعه لخير صدر منك، والملائكة تدعو للمصلي والمصلي لا يعرفهم ـ ما دام في مصلاه: (اللهم اغفر له اللهم ارحمه).

وحملة العرش والكروبيون أو القروبيون (مَن حول العرش من الملائكة المقربين) يدعون للمؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

بل وملائكة السماء عمومًا: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

ومع هذا الدعاء والإخلاص فيه ستجد له في نفسك أثرا تذوقه بقلبك.

* * *

وأخيرًا فما حرم أحد تمامًا ولا أعطي أحد تمامًا وإنما هو عطاء ومنع لهذا ولذاك .. فما من محروم إلا وقد أُعطي، وما ممن أُعطي إلا وقد حُرم .. هذا مع اختلاف الدرجات والتفاوت بين الخلق عن قصد ليعرف صاحب النعمة قدر النعمة لمّا يرى من حرم منها فيعرف قيمتها فيشكر ربه.. وفى الحديث:«.. ورفع لهم أبوهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني و الفقير وحسن الصورة وغير ذلك فقال: رب لو سويت بين خلقك فقال: إني أحب أن أشكر» [2].

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٦٤٨.
(٢) المستدرك، جـ ٢، ص ٣٥٣.

التبعية .. الإمعة .. الغوغائية .. الهمل .. "الذي هم فيكم تَبَعٌ"

«التفكير عبء ثقيل وقد تخطئ فلا تفكر .. نحن نفكر لك .. ».

«والإرادة عبء آخر تخلَّ عنه نحن سنحدد لك ما تفعل .. ».

هذه هي رسالة أوضاع الاستعباد التي سادت المسلمين في العقود الأخيرة ..

الإعلام الغوغائي مع الذل والخوف والاستعباد .. تسطيح الأمور .. اضطراب ترتيب الاهتمامات والمقاصد، بل تفاهة الاهتمام .. مساحيق التجميل .. تقليم الأظافر .. مباريات الكرة .. انتقال لاعب .. موضة .. الشخصيات الهزلية التي تشكل الجموع التي لا تتحرك لقضية تصلحها لكن تتحرك وراء كل ناعق.

حتى من تَدَيّن .. غالبًا يحمل نفس الداء إلا من رحم الله .. وقد لا يحب بعض المتبوعين في الدين أن يكون لمن معهم إرادة حرة وقدرة على النقد والرؤية المعاكسة ـ في حدود الشرع ـ وقد لا يحبون التصحيح أو نبوغ الآخرين فقد ينازعونهم الرئاسة أو الثناء أو إشارات البنان .. إنها الدنيا النتنة تتلصص إلى قلوب الخلق، والمسروق غافل، فقد يغفل بعض من يطلب الآخرة ـ ولو ظاهرًا ـ عن ما تنطوي عليه قلوبهم فيؤثّر في مواقفهم.

قرون والمسلمون على هذه الحالة من شدة السيف والاستعباد .. من التصوف السلبي الذي يلغي العقول، إلى العلمنة والإباحية والغوغائية والدجل الإعلامي وإنكار الحقائق وقلبها وإلغاء المُسَلّمات. بينما ربى رسول الله أصحابه بطريقه مختلفة فهذا الحُباب بن المنذر في بدر: «قال ابن إسحاق فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن منذر بن الجموح قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»[1].

وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة بل والسعود الخمس في غزوة الخندق يعترضون على مصالحة هوازن وغطفان على ثلث ثمار المدينة ليرجعوا ويخرجوا من التحالف مع قريش فينفرد المسلمون بقريش لكن كانت عزيمتهم أقوى من هذا وشأنهم أعلى فقالوا: لا.

يقول ابن كثير فى تاريخه: «كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم عن الزهري إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا: يا رسول الله أمرًا تحبه فاصنعه أم شيئًا أمرك الله به ولابد لنا من العمل به أم شيئًا تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٢٦٧.

وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرَى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا عليها»[1].

وفي أُحُد كانت المشورة حتى خرج رسول الله على خلاف رأيه الشخصي احترامًا للشورى الملزمة التي ألزمه الله تعالى وألزم أصحابه بها.

كل هذه المواقف من أجل نضج شخصيات أصحابه وإعطائها مساحتها من النمو فيأخذ بآرائهم بمنتهى الاحترام والتقدير وبلا تسفيه أو استخفاف أو سخرية أو تجاهل كما يفعل المستبدون اليوم .. بل يفاضل بين آرائهم ليأخذ بأرجحها كما فعل فى مواقف أخرى عليه أفضل الصلاة والتسليم.

* * *

اليوم الأمر مختلف حتى ألف باء عقل تتعب لتثبتها للناس، صارت معضلة أن تقنع الناس بما يرون لأن سيدهم يقول لهم شيء آخر فهو المُصدَق .. والواقع يُؤوّل على مذهب من يرى التأويل!!.

ففجأة يصير الغاصب صاحب حق، والخيانة تصبح عقلانية، والإباحية تصبح حرية والنذالة واقعية و ..

مشكلة أمة أمام مستعبديها .. حتى صاروا لا يعرفون هل اليهود والصليبيون أعداء أم سادة أم أصدقاء ..؟!.

والجواسيس هل ما زالوا مجرمين أم صاروا قيادات فكرية، والتخريب هل ما زال تخريبًا أم أصبح عمرانًا .. !!.

وهل تجريدنا من القوة حقيقة أم أننا في أزهى العصور، وامتلاك القوة جريمة قد تستفز العدو ـ إن كان عدوًا ـ ولنعتمد على الصداقات ووفاء الكفار بالعهود !! نفس نصائح الوزير ابن العلقمي للخليفة العباسي حتى اجتاح التتار بلاد المسلمين ..

وهل الدعارة جريمة تُستنجَس صاحبتها وندعو لأبنائنا وبناتنا ألا يكونوا مثلها أم صارت بابًا للشهرة تدفع الفاجرات الأموال ليكتب عن هذه الجريمة فتسلط عليها الأضواء ثم تصير نجمة ثم تحتفظ بناتنا بصورتها على سبيل الحب والفخر والتأسي! وندعو ونتمنى لبناتنا أن نراها نجمة مثلها!!!

ولا عجب أن نرى هذه الفاجرة تبين للناس وتشرح لهم حقيقة الإسلام وسماحته وتحارب التطرف!!.

وهل اللصوصية لأموال المسلمين والفساد المعلن الذي لا يستحي مبرر للأخذ على أيديهم أم مؤهل للترقي في مدارج السياسة؟!.

وهل المعلن والمتحدي بانحرافه وتآمره على الأمة وخيانته لها والتواطؤ مع العدو لابتزاز الأمة .. هل هذا مبرر للأخذ على يده أم لاستجدائه واحترامه وتمكينه على رقاب المسلمين؟!.

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٤، ص ١٠٤ - ١٠٥.

وهل قتل اليهود للمسلمين جريمة أم المجرم هو المسلم المقتول لأنه يرفع رأسه ويرفض الذل؟.. وأنا لا أبالغ فقد قال هذا دعاة! يبكون!! ويشرحون للناس دين محمد!!!.

ومشكلة الحركة الإسلامية كذلك كما هي مشكلة مجتمع .. فلم ينظر المصلحون عمومًا ـ إلا من رحم الله ـ إلى احتياج الأمة على مدى بعيد بل نظر الكثير إلى كيف يجمع الناس .. **والغوغائية لا تفيد، وكما يجتمع الخفاف ينفضون ..**

نفس المأخذ ونفس الداء فى الحركة الاسلامية ـ الا من رحم الله ـ شخص يرفض الموضوعية ويرفض أن يفهم .. بل أحيانًا يخاف أن يفهم .. وبطريقة مختصرة يقول لك كلّم من أتبعه؛ إن صوّبك فأنا خلفه أنك صواب، وإن خطّأك فأنا خلفه أخطئك وأعاديك ..

أنت لا تكلمه في أمر دقيق يصعب فهمه بل قد تقنعه بقضية فيها عشرات الآيات .. هذه العشرات من الآيات لا تكفيه، وكلمة من المتبوع الذي يحرص على هذه التبعية الحمقاء .. هذه الكلمة تكفيه فيسمع! ويفهم!! ويطيع!!!.

عندما تحترم الشخصية التي أمامك عمومًا وتسوق لها القواعد الشرعية يرتعد أن يفهم ويخاف من التغيير .. ويخشى أن يكون مستقلاً عاقلاً يقرر بنفسه .. يخشى من أن يخرج خارج القطيع .. وأن يحرم من الدفء العاطفي الجمعي. فيؤْثر ترك التفكير والاختيار والرؤية الحيادية لينعم بالحال الجمعي ..

قد يُسأل الكثير عن موقف ما .. اتخذوه .. يهدم قواعد شرعية ويصادم مصالح الأمة ـ مع الزعم أنه كان للمصلحة ـ فلمَّا يُناقش يقول: هكذا قال الأستاذ فلان .. هل نكون بهذه الطريقة في الإنضاج والتربية (عبادًا أولي بأس شديد) الذين وعدوا بالدخول الثاني للمسجد الأقصى؟.

لم تسْعَ الحركة الإسلامية إلى تغيير الأشخاص المشوهة خاماتهم البشرية في هذه الجاهلية التي أذلت الناس وتعمدت إذلالهم وتسفيه عقولهم ورسخت فيهم سياسة القطيع ..

لم تسْعَ إلى تغيير هذا ليخرج شخص حر كريم عنده مبادأة .. قادر على التفكير والاستنتاج والقرار والعمل والموقف[1] .. ويصمد على مدى طويل بلا ارتباط بموقف لشخص محدد .. إنما خرج الناس من تبعية إلى تبعية أخرى .. الأولى بمسحة الاستعباد، والثانية بمسحة الدين ـ زورًا ـ كالميت بين يدي المغسل كما تقول الصوفية.

* * *

هذا هو المرض وقد أطلْت فيه لشدة المعاناة منه وعموم البلوى به إلا القليل.

والعلاج هنا في كتاب الله تعالى:

انظر إلى كتاب الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فكل واحد منا مُكَرّم .. والقرآن يقرر هذا كخبر وليترتب عليه عمل وتكليف وهو الحفاظ على التكريم.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وهذا التقويم والتكريم مطلوب الحفاظ عليه.

---

(١) راجع فصل الشخصيات. عند الحديث عن شخصية خليل الله ابراهيم عليه السلام.

ثم انظر إلى المسئولية: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، بمعنى أن كل قول أنت مسئول عنه، وليس أحد آخر.

بل وأكثر من هذا: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فأنت مسئول عن سمعك وعن بصرك وعن فؤادك يعني: عقلك وتفكيرك .. أنت وحدك .. والحساب يوم القيامة ليس لمجموعة مجموعة بل لفرد فرد: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥]، وإن كان يأتي وسط الزمرة التي كانت على شاكلته في الدنيا .. فالمسئولية فردية، والفرد مسئول عن كل كلمة .. وبل مسئول عن سمعه وبصره وإدراكه .. ليس عن سمع المحرمات أو عدم سمعها فقط بل وعن استخدام سمعه للحق ولاتخاذ موقف صحيح، وليس مسئولاً عن البصر لعدم النظر للمحرمات فقط بل ولإدراكه به ما يجب أن يتعلمه .. وإدراكه مسئول عنه فيما إذا استخدمه أو عطله، فإن عطله فهي جريمة وليست عذرًا .. هذا هام.

ثم يقرر القرآن تحريمًا قاطعًا ألا تتبع إلا ما تعلم كونه حقًا بأدلته القطعية: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، والمعنى واضح: لا تتبع ما لا تعلم.

«قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تقل. وقال العوفي: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني: شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال»[(١)].

ويقول الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لا تقل للناس وفيهم ما لا علم لك به فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق فذلك هو القفو»[(٢)].

ويقول البيضاوي: «﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ ولا تتبع وقرئ ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ من قاف أثره إذا قفاه ومنه القافة ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما لم يتعلق به علمك تقليدًا أو رجمًا بالغيب»[(٣)].

لا تمشي على غير هدى .. لا تمشي على بث غيرك لقول هو خطأ يبثه إعلامي أو إعلامية مرسوم لهم دورهم وما يقولون .. هذا ليس عذرًا لك: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾.

أين علمك بصحة هذا أو خطئه .. ماذا ستفعل؟ ولماذا ؟ من أين علمت صحة هذا .. ولماذا ترفض هذا؟ من أين علمت بطلانه .. أين عقلك وإدراكك؟ إنه مسئولية.

فإذا علم العبد مسئولية الكلمة وأنها تكتب باسمه هو، ويحاسب عليها هو.

وإذا علم مسئولية السمع والبصر والإدراك كأدوات يستخدمها للإدراك وكجوارح يعمل بها فليحفز هذا كرامته وشخصيته .. ليفهم .. ليدرك .. **ليأخذ قرارًا صحيحًا مبنياً على مقدمات يلقى الله عليها؛ فيقول لربه عملتُ هذا من أجل كذا .. غير هذا لا يغني.**

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٥٧

(٢) تفسير الطبري، جـ ٨، ص ٨٠.

(٣) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٤٤٥.

وانظر إلى فرض الله تعالى للبصيرة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب من المسائل المستفادة من الآية: وفيها أن البصيرة من الفرائض(١).

* * *

ومن كان مخلصًا لله يريد خير هذه الأمة حقيقة فلينظر إلى إصلاح الشخصية المسلمة المعاصرة .. فكم أفسدوها .. وكم أفسدوا خامتها ..

وهذا جزء من الإحياء الإسلامي وجزء من العمل الإسلامي لا يقل أهمية عن بيان المفاهيم الشرعية الصحيحة .. لأنها حارس على الدين وعلى مصالح الأمة وعلى المفاهيم الشرعية التي يجب أن تجد خامة صالحة تحملها.

ومن أراد أن يتأكد من هذا فلينظر إلى طبيعة بني إسرائيل المستعبَدة .. لم تصلح لحمل الحق .. فأقدامهم مبتلة من البحر من المعجزة التي رأوها بعيونهم ونجوا بسببها ثم قالوا عند أول عارض: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، عندما رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم .. فعجزت بصائرهم عن الارتفاع وأرادوا المحسوس من الشرك الأعظم! فكلّت بصيرتهم مع كلالهم عن العمل.

يرفعهم إلى مناعم الطعام مَنًا وسلوى فلم يطيقوا فعادوا للأدنى .. يأخذ بأيدهم ليحملوا كتاب الله ويقيموه، فلا يأخذوه حتى قلع الجبل فوقهم فأخذوه عن خوف، ويأمرهم بالمواجهة للعدو ويضمن لهم النصر ويخبرهم أن الله كتب لهم هذه الأرض فيلوذوا بالقعود ويجيبوا الإجابة السفيهة الفاسقة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولم يفلح الجيل الذليل من بني إسرائيل .. الذي لم يتعود الارتفاع وطلب المعالي ولم يعشق العزة ويرى دونها الدم، لم يكونوا مثل هذا الذي قال:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... واسقني بالعز كأس الحنظل

حتى جاء أبناؤهم فلم يكن فيهم أدواء آبائهم فدخلوا مع نبي دون موسى وهو يوشع بن نون ـ عليهما السلام.

ولكن انظر إلى العربي الحر الأبي .. نَعَم كان شديد العداء للدين والجهل به .. لكن صفاته كمعدن بشرى أفضل، صفاته الأساسية التي هي مهد وأرض لتقبل صفات الإيمان ثم صفات القرآن ثم السنة ثم الأوامر والنواهي (افعل ولا تفعل) ..كانت أفضل.

فلما يسلم يتغير الحال، وفي عشرين سنة تغيرت الجزيرة، وفي عشر ونيف بعدها يتغير نصف العالم وتتغير البشرية إلى يوم القيامة.

لو كان فاقدًا للصفات الأولى .. الصفات الآدمية والبشرية الرفيعة لما أفلح، لذا قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ومن الحديث أن هناك ثوابت تتنزل عليها أخلاق هذا الدين العظيم.

---

(١) كتاب التوحيد.

احترام الإنسان واحترام عقله وتفكيره وإرادته هام، وهو رسالة هذا الكتاب العزيز؛ فالاستخفاف لم يحكه القرآن إلا عن أمم هابطة مشركة: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٦].

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٤].

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٧].

انظر إلى السؤال وانظر إلى إجاباتهم .. لم يجيبوا ولم يحترموا أنفسهم ولا عقولهم .. كان يرفعهم فرفضوا احترامها ورفعتها، ولو فعلوا لنجوا بها في الدنيا والآخرة.

لا تتنازل عن تفكيرك وإرادتك .. فأنت تقرأ القرآن، والقرآن يمنعك عن هذا.

* * *

أخيرًا انظر في مصارع وحتوف أمم كافرة وأقوام كان فيها من ألغى عقله وإرادته أو استُخِف به كيف حكم الله تعالى عليهم؟.

كان فيهم الضال الذي لعبوا بعقله، وكان فيهم الغاوي الذي أفسدوا إرادته .. والضال والغاوي كلاهما كانوا متبعين لمضلين ومغوين .. وكلا الفريقين: الضال ومن أضله .. والغاوي ومن أغواه .. اجتمعوا جميعًا في النار، وسمى الله تعالى الجميع ظالمًا وسماهم جميعًا مجرمين وجعل الجميع هالكًا.

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

أخراهم: الأتباع .. أولاهم: المتبوعون الرؤساء .. وقد اجتمعوا جميعًا في النار وكان السبيل الذي سلكوه هو أن ضل الأتباع بسبب المتبوعين المضلين من أئمة الضلال.

والضلال خلل في العلم والفهم بسبب تزيين الباطل وإيراد الشبهات على الحق فتركوا الحق لأجل هذا.

هذا داء مهلك مردي .. وهذا دواؤه .. دواء ناجع في كتاب الله ..

فهل من مُستشفٍ لأدوائه، وهل مِمَّن يحافظ على تكريم الله تعالى له؟.

* * *

التبعية والذل وقبول الاستذلال والاستضعاف لكل مستكبر وإبطان الرغبة في الاستكبار عند الآخرين

يملك الناس الكثير ـ وكلما كانوا كرامًا أحياءً كلما رفضوا الذل ورفضوا التبعية ورفضوا الاستضعاف..

وكلما هانت عليهم نفوسهم وكرامتهم باعوا .. وكانوا "وسط الزفة " لا يدرون إلى أين المسير.

وهو مرض صنو المرض السابق لكن فصّلنا أكثر؛ فبينهما فرق.

التابع الذليل الذي قد يفهم .. قد لا يستخف في عقله .. لكنه يُخَوَّف ويُهدَّد فلا يقدر على غير هذا .. أو يُرغَّب فيجد في نفسه ميلاً للباطل لاشتهائه إياه، فإن الباطل يمد يدين واحدة ترهيبًا والأخرى ترغيبًا.

إرادته أحيانًا تُتْعبه فيبغي التخلص منها .. هل هذا عذر؟!.

إن القرآن يعده جريمة، ونعيد هنا ما قلناه قريبًا:

انظر في مصارع وحتوف أمم كافرة وأقوام كان فيها من ألغى عقله أو استُخف به كيف حكم الله تعالى عليهم؟.

كان فيهم الضال الذي لعبوا بعقله، وكان فيهم الغاوي الذي أفسدوا إرادته .. والضال والغاوي كلاهما كانوا متبعين لمضلين ومغوين .. وكلا الفريقين: الضال ومن أضله .. والغاوي ومن أغواه .. اجتمعوا جميعًا في النار، وسمى الله تعالى الجميع ظالمًا وسماهم جميعًا مجرمين وجعل الجميع هالكًا.

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

أخراهم: الأتباع .. أولاهم: المتبوعون الرؤساء .. وقد اجتمعوا جميعًا في النار وكان السبيل الذي سلكوه هو أن ضل الأتباع بسبب المتبوعين المضلين من أئمة الضلال.

والضلال خلل في العلم والفهم بسبب تزيين الباطل وإيراد الشبهات على الحق فتركوا الحق لأجل هذا.

فهذا في جانب الضلال .. يعني: الخلل في الفهم والعلم.

ثم ذكر الغواية في محل آخر، والغواية هي الخلل في الإرادة والعمل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٢ - ٦٤].

يقول البيضاوي: «﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ أي: هؤلاء الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول ﴿ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي: أغويناهم فغووا غيًا مثل ما غوينا، وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم، وأنهم لم يفعلوا بهم لوسوسة وتسويلاً، ويجوز أن يكون ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ صفة و﴿ أَغْوَيْنَٰهُمْ ﴾ الخبر لأجل ما اتصل به فإفادة زيادة على الصفة وهو إن كان فضلة لكنه صار من اللوازم ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر هوى منهم، وهو تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي: ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقيل ﴿ مَا ﴾ مصدرية متصلة بـ ﴿ تَبَرَّأْنَآ ﴾ أي: تبرأنا من عبادتهم إيانا»[1].

فالخلل هنا خلل في الإرادة بقبول الغواية لانحراف في نفس التابع ـ للشهوات وميل به للفجور فلم يتحمل الترك من أجل الله تعالى.

وفي سورة إبراهيم يذكر الاستضعاف فقط: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فهنا ذكر الضغط من المستكبرين الأقوياء وقبول الضعفاء له، فلما قبل الضعفاء هذا دخلوا النار، ولو عرفوا عِظم الجريمة وعِظم التبعة والمسئولية لتحفزوا أن يدافعوا عن إرادتهم ومصيرهم.

فإن معرفة عواقب الأمور واليقين بالآخرة يجعل الإنسان كأنما خلق من جديد .. فهؤلاء السحرة أمام فرعون لم يلينوا لأحد بل صمدوا حتى آخر رمق، واليوم وإلى يوم القيامة كانوا مثالاً لكل مؤمن .. ولم يكونوا يملكون شيئًا .. كانوا فارغي اليد من كل حيلة يتصدون بها لفرعون .. لكن مع فراغ أيدهم كانت قلوبهم ملأى بالآخرة وبتعظيم الله تعالى فسطروا موقفا مشهودًا.

أما في سورة سبأ فذكر الاثنين معًا: الضغط والقهر ممزوجًا مع الشهوات وإلا فلماذا قبلوا الضغط والغواية؟! وكانت هذه هي حجة المستكبرين بل ومن أجلها سموا الضعفاء مجرمين مثلهم، ولم يروا بينهم وبينهم فرقًا في الجريمة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

فأولاً: سمى الله تعالى الجميع ظالمًا: التابع الذليل الضعيف، والمتبوع المستكبر.

وثانيًا: بيّن هذا الجزء الخفي: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني: صادف ضغطنا عليكم انحرافًا في نفوسكم وميلاً منكم للفجور والغواية، فلهذا قبلتم .. بينما رفض غيركم ضغطنا من المؤمنين.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٠٠.

يقول البيضاوي: «﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾، أنكروا أنهم كانوا صادين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه ولذلك بنوا الإنكار على الاسم»[1].

وفي موضع آخر يقول: أن الميل الذي في نفوسهم لقبول الغواية هو الذي حملهم على متابعة هؤلاء[2].

ونفس المعنى في الصافات: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٤].

واليمين هنا له ثلاث أوجه:

١ - الحَلِف: أقسموا لهم أنهم على الهدى.

٢ - جهة الخير: يعني من جهة الدلالة على الخير وعلى ما يقرب إلى الله تعالى، فخدعوهم فضلّوا.

٣- جهة القوة: فاليمين هي الأقوى عمومًا ولذا يرمز بها للقوة، يعني بالضغط وفرض الأمر عليهم.

ـ فلو كان اليمين هنا هو الخير أو الحلف (الوجه الأول والثاني):

فيكون قد ذكر في أول سياق هذه الآيات الضلال وفي آخرها الغيّ .. يعني: خداع وشُبهة مع شهوة صادفها الضغط والقوة .. ويكون الضلال قد ذُكر في قوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ وذكر الغي في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾.

يقول البيضاوي: «﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أجابهم الرؤساء أولاً: بمنع إضلالهم بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم. وثانيًا: بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قومًا مختارين الطغيان»[3].

ـ ولو كان اليمين هنا هو القوة (الوجه الثالث):

فتكون القوة مع الشهوة وقبولهم لها ويكون السياق متمحضًا لذكر جانب الغي كآيات القصص.

وعلى كلٍ: فقد اجتمع الجميع .. من تنازل عن إرادته ومن طلب منهم هذا .. سواء كان التنازل لأجل ضغط مجرد أو لأنه ضغط صادف شهوة.

كما أن الضلال بالتنازل عن الإدراك والعقل كما قلنا في النقطة السابقة أيضًا عُد جريمة.

فالتنازل عن الإرادة جريمة وليست عذرًا. هذا داء عام في عصرنا .. وفي كل عصر تدهور .. وهذا علاجه في القرآن .. وعجبًا لمن يجعل القرآن تابعًا لأوضاع منحرفة!.

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٤٠٢.
(٢) يراجع البيضاوي.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٠.

كذلك فليُنظر فإن الأمر قد ينقلب فيتحول المستضعف المستَذَل إلى مستكبِر مستذِل لغيره وهو داء مستكن ينتظر الخروج حتى يجد موجِبه .. فيقع المسلمون دائمًا في قتال على المُلك وتفرق وتفتيت فيضعفون فيستولي عليهم العدو ويذل الجميع ويقضي على كلا المستكبر والمستضعف.

وعلى المستكبر أو طالب الكبر أن يعلم أنه لا يبلغ شيئًا فقد قال تعالى عن المستكبرين:

﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦].

يقول البيضاوي: «﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾، إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم أو إرادة الرياسة أو إن النبوة والملك لا يكونان إلا لهم، ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ ببالغي دفع الآيات أو المراد، ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ فالتجئ إليه ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ لأقوالكم وأفعالكم»[1].

وأنه ممقوت: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٣٥].

وأنه فقير كبقية الخلق، وكل ما سوى الله تعالى فقير إلى ربه يطعمه ويسقيه، ويكسوه ويغذوه، ويعلّمه ويهديه ويعافيه ويشفيه ويفرّج كربه وينفث همه ويكفيه أمره: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

وأنه يجازَى بالصغار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، والداخر هو الصاغر الذليل.

وأنه مصروف عن الهدى عقوبة له: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

وأنه وريث إبليس: ﴿ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥]،

﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

والإباء الرفض للأمر، والعلو والاستكبار هو أن يكون عند نفسه عاليًا ..

فبئس الوارث والموروث.

* * *

يقول شيخ الإسلام:

«قال بعض العارفين: ما من نفس إلا و فيها ما في نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر. وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه و يعادي من يخالفه في هواه وإنما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٩٨.

والناس عنده في هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم يقولون يا رباعى أيْ :صديق ،وعدو؛ فمن وافق هواهم كان وليًا وإن كان كافرًا مشركًا ومن لم يوافق هواهم كان عدوًا وإن كان من أولياء الله المتقين وهذه هي حال فرعون.

والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية وجحود الصانع.

و هؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى.

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده، فإن كان مطاعًا مسلمًا طلب أن يطاع في أغراضه وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع وخالف هواه، وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل.

وإن كان عالمًا أو شيخًا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره، حتى لو كانا يقرآن كتابًا واحدًا كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله والاقتداء به أكثر من غيره، وربما أبغض نظيره وأتباعه حسدًا وبغيًا كما فعلت اليهود لما بعث الله محمدًا ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾.

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون و سلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾.

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه ويشكروه ويعبدوه، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده وليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا كما أرسل كل رسول بمثل ذلك قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا وأن لا يتفرقوا فيه فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

قال قتادة: أيْ دينكم دين واحد وربكم رب واحد والشريعة مختلفة.

فمن كان من المطاعين من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك متبعًا للرسل أمر بما أمروا به، ودعا إلى ما دعوا إليه وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه؛ فإن الله يحب ذلك فيحب ما يحبه الله تعالى، وهذا قصده في نفس الأمر أن تكون العبادة لله تعالى وحده وأن يكون الدين كله لله.

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود فله نصيب من حال فرعون وأشباهه.

فمن طلب أن يطاع دون الله فهذا حال فرعون ومن طلب أن يطاع مع الله فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله.

والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه وأن لا يكون الدين إلا له وأن تكون الموالاة فيه والمعاداة فيه وأن لا يتوكل إلا عليه ولا يستعان إلا به.

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له وإذا أمر أحدٌ غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه وسُر بوجود مطلوبه.

وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسنًا ولم يجعله مسيئًا فيرى أن عمله لله وأنه بالله.

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب التي ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أي شيء، ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور، ولم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها فإن فيها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فالمؤمن يرى أن عمله لله لأنه إياه يعبد وأنه بالله لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكورًا لأنه إنما عمل له ما عمل لله كما قال الأبرار: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾، ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه فإنه قد علم أن الله هو المان عليه إذ استعمله في الإحسان، وأن المنة لله عليه وعلى ذلك الشخص فعليه هو أن يشكر الله إذ يَسَّرَه لليسرى، وعلى ذلك أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك.

ومن الناس من يحسن إلى غيره ليمن عليه أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه أو نفع آخر وقد يمن عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا.

فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ولا عمل لله ولا عمل بالله فهو المرائي»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى، جـ ١٤، ص ٢٢٤، ٢٣٠.

الاغتراب والانزواء على الذات والإغراق في القضايا الشخصية والانسحاب من الاهتمام العام والعمل العام للأمة

(لا شأن لي بما يجري)، (لا ناقة لي فيها ولا جمل)، (تِخرب) وعلى شاكلتها الكثير من الألفاظ والتعبيرات المحفوظة ..

والسبب في هذا الموقف عدة أمور منها:

أولاً: غياب الهوية الإسلامية، ومهما تكلموا عن العروبة أو الفرعونية أو (موطني) فلا يوجد له في النفوس عمق الهوية الإسلامية التي تمثل الذات الحقيقية لأفراد الأمة وجموعها وتاريخها.

ثانيًا: غياب المشاركة الفعالة في الحياة العامة بغياب تاريخي للشورى الملزمة، وعدم تمثيل الأمة تمثيلاً جادًا وفاعلاً وملزمًا.

ثالثًا: غياب التربية على هذا الدين الذي يدعو إلى الإيجابية العامة والعمل العام.

رابعًا: شدة البطش والقهر لعموم المسلمين.

ونتيجة الأمر ..

أولاً: أن الكلمة خطأ فقوله: (تِخرب) عائد في النهاية عليه وعلى عرضه ودينه وذريته.

وثانيًا: فساد الأمور إلى حد يصعب على المتلطف إصلاحها ـ إن وجد من يصلح.

وثالثًا: السؤال عن الأمر العام يوم القيامة وعن دور الفرد ومسئوليته في ضياع الأمة أو السلبية أمام ضياعها، وهذا يغفل عنه الكثير ظنًا منهم أن السؤال يوم القيامة هو فقط عن أداء الصلاة والزكاة والصيام والصدق أو الكذب الفردي .. وهذا خطأ.

وهذا الخطأ نابع من خطأ آخر وهو المفهوم بأن هذا الدين دين فردي، وتركيز الوعاظ والدعاة على الجانب الفردي من قيم الدين فقط .. وكأنه ليس ثمة مسئولية جماعية.

و هذا المفهوم للشرع خطأ، والمفهوم الأخروي للسؤال أمام الله تعالى عن الجانب الفردي فقط خطأ ..كما أن المفهوم الدنيوي وظن الفرد ببعد خطر الانحراف عنه خطأ كذلك .. فضياع إقامة الدين أضاع أبناءنا بإعلام قذر هابط وتعليم يحارب الدين وجهل مطبق بالدين ثم الضياع العام والمذلة العامة أمام العدو التاريخي للأمة من الصليبية والصهيونية والذي يؤدي في النهاية إلى (الذبح) على يد الصليبيين كما في العراق وأفغانستان والصومال، أو تمكين الفرس الروافض من الأمة كما في العراق أيضًا، أو على يد اليهود كما في فلسطين، أو بدعم صليبي لأوضاع الفرقة وأمراء الحرب كما في السودان والصومال وغيرها.

وكل هذا طال عموم أفراد الأمة في بيوتهم ومساكنهم وانظر إلى العراق وأفغانستان، واعتبر بغزة حفظها الله وسائر بلاد المسلمين.

واستمرار أوضاع الفساد والخيانات جعل الحجة في الانسحاب والتخاذل في كل أزمة بل التواطؤ مع العدو وموالاته ضد المسلمين الحجة في كل هذا هي الضعف؛ فلا يملك المسلمون صاروخا ولا

طائرة ولا دبابة إلا ما أعطاهم العدو! فلا يستطيعون صناعة شيء من هذا، وبالتالي فلتكن الخيانة أو التواطؤ أو تمرير مشاريع العدو أو ذبح إخواننا أو ذبحنا على أيدي إخواننا هي الواقعية .. وهي الحل المتاح !! وكل هذا البلاء برز نتيجة غياب البعد الجماعى فى اقامة الدين وحفظ مصالح الأمة.

* * *

وأما القرآن فيعرض الأمر بصورة مختلفة:

فيأمر الله تعالى أن يعتصم المسلمون بدين الله تعالى في حال اجتماع: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ .. ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، يعني: لا يكفي الاعتصام الفردي بهذا الدين وإلا لم نقم بالتكليف الوارد بالآية؛ فالتكليف في الآية بأمرين: الاعتصام بحبل الله يعنى بدينه، وأن يكون على هيئة الاجتماع.

ويمتن تعالى علينا بالأخوة وألفة القلوب: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ويحذّر تعالى من السكوت على الانحراف العام: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، يعني: يعم بلاؤها على المرتكب وعلى الساكت عن النهى عن الانحراف.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ ﴾ يعني: عقولاً وأحلامًا ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦]، فهؤلاء فقط الذين نص القرآن على نجاتهم على مدار التاريخ: من انتهى عن المحارم ورأسها الشرك، ونهى الآخرين حتى أعذر إلى الله تعالى.

ولما اعتدى اليهود فاصطادوا يوم السبت بحيلة عملوها، وهو محرم عليهم الصيد فيه انقسموا إلى ثلاث فرق: فرقة اعتدت وأكلت من الصيد المحرم، وفرقة لم تعتد ولم تنه من اعتدى، وفرقة لم تعتد وقامت بالنهي والتذكير والعمل العام في النهى عن الاعتداء.

فهلكت الأولى، ونجت الأخيرة، وأما الثانية فلم يذكر القرآن موقفهم .. إما لأنهم هلكوا مع من هلك، وإما أنهم نجوا لكن لسوء موقفهم لم يذكروا إهمالاً لشأنهم وهو الراجح الذي رجع إليه ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦].

فنص القرآن على نجاة من حفظ محارم الله تعالى ونهى كذلك عن اعتدائها.

وأمر الله تعالى أن تكون الأمة كلها أو يقوم (جزء كافٍ منها) بمهمة الإصلاح الدائم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الأمور: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، ثم نهى تعالى عن تفرق الأمة والجماعة العامة للمسلمين بسبب الدنيا -

كما هو سبب نزول الآية ـ أو بسبب الدين بالابتداعات في أصول كلية من الدين فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٧].

ومدح ربك عباده الذين يصطفيهم للشهادة فقال: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى في صفة المؤمنين في مقابل صفات المنافقين الذين ذكرهم قبل هذه الآيات مباشرة: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، وغير ذلك كثير من الآيات.

وانظر إلى موقف مؤمن آل فرعون والمؤمن في سورة يس ودور الأنبياء عمومًا والمؤمنين معهم فقد كان موقفًا عامًا لنجاة الناس(١).

ولا يظن أحد أن هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصًا بالأمر فقط بأداء الصلوات بل هو أمر عام بأداء الصلوات وإظهار أبهة الإسلام وشعائره، وبحفظ الحدود والحرمات وقبل كل هذا إقامة الدين وإقامة الحياة على هذا المنهج الرباني.

وكذلك يشمل الخطأ العام كالانحراف في أموال المسلمين وتضييعها أو ضياع مصالح الأمة .. والسعي لإيقاف هذا الضعف والتدهور .. والأمر باكتساب القوة التي يُردع بها العدو، والنظر في المصالح الإستراتيجية عموما للأمة.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقتصر على العالِم الشرعي فقط بل قد يكون رجل سياسي أو اقتصادي أو عسكري أو في مجال الزراعة أو العمران أو الرقابة على أموال المسلمين أو في التعليم أو في الإعلام .. كل كلمة من هذه الكلمات تمثل مصالح للأمة تضيع الأمة إن لم تُحصّلها .. وعلى سبيل المثال فالفساد في مجال الزراعة مثلاً أدخل أمراض السرطان في مصر بأعداد غفيرة بسبب الطعام والشراب بسبب البذور والمبيدات المسرطنة .. وهذا أمر لم يعان منه فئة بل عموم الأفراد من الأهل والذريات، فالأمم الحية التي تمنع هذا الفساد تحمى نفسها وأبناءها.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل كل هذه المجالات ويشمل كل فرد في الأمة، وكلما عظمت المعرفة عظم الواجب، وكلما عظمت المسئولية عظم الواجب الشرعي كذلك .. وقد يفيد رجل في هذا ما يحفظ به مقدّرات للأمة يصعب لملمتها إن ضاعت أو تفرق شعثها.

هذا من الدين .. وهذا من أعظم الواجبات .. فإنه إن ضيّع رجل ما مصالح عامة لملايين المسلمين ولأجيال قادمة أليس هذا أعظم من السرقة الفردية، وأليس من الضروري أن يوعظ فيه المسلمون كما يوعظون بأداء الصلوات ..؟.

---

(١) يراجع فصل القصص وفصل الشخصيات في نفس هذا الكتاب لبيان دورهم وما مُدحوا به.

ثم كيف سيتخلص رجل أضاع هذه المصالح من السؤال يوم القيامة حتى لو كان متدينًا بصورة فردية عالية ؟!!.

ما نريد تعريفه هنا للأمة هو أن هذه هي طبيعة دين الله تعالى، وأنه يجب تربية المسلمين على هذا وأنه أحد الفرائض الشرعية الهامة وأحد أعظم مزالق الخطورة يوم القيامة .. ومن لم يلتفت إلى هذا فهو على خطر عظيم، ووامصيبتاه لو كان داعية!!.

* * *

ومما ينبغي أن يُعلم أن الأداء الفردي للعبادات لا يتم ولا يتمكن منه المسلم إلا من خلال الوضع العام الذي يقيم شريعة الله تعالى .. ولينظر المسلم اليوم لصعوبة تمسكه بهذا الدين وصار كالقابض على الجمر .. ولينظر إلى صعوبة ممارسة دينه وكمثال بسيط غض البصر .. وأعظم منه تربية الولد على هذا الدين .. وقبل كل شيء التحاكم إلى شريعة رب العالمين.

وأكثر من هذا فإن ضعف المسلمين يؤدي في النهاية إلى القضاء على ما تبقى من أمر هذا الدين .. فإنه لما دخل الصليبيون الأمريكيون العراق هدموا المساجد وحاولوا تبديل القرآن نفسه بما سموه الفرقان، وهى محاولة لم يجرؤ عليها أحد من قبل، لكن أغرى بها ضعفُ المسلمين، لولا أن الله تعالى ضمن حفظ هذا الكتاب وبالتالي فشل هذه المحاولة.

ولما علا الصليبيون كذلك فرضوا تغيير المناهج الدينية في بعض البلاد بحجة أنها مناهج وهابية تعارض التعايش أو بمعنى أصح الانبطاح أمام الغرب.

وفي بلاد أخرى غيروا مناهج التعليم وحذفوا الآيات التي تتناول اليهود أو الغزوات التي تكشف طبيعتهم بحجة مناقضتها لثقافة السلام! رغم أنه في نفس الوقت يدرس اليهود لأبنائهم أشد المناهج تشددًا بل ويتعلمون احتقار العرب والمسلمين وسبهم واستنجاسهم بل وتعليمهم أنه يجب القضاء عليهم!!.

وقبيل اجتياح الصليبيين الأثيوبيين للصومال قال رئيس وزرائهم: (إن الكتاتيب التي تعلم أبناء المسلمين القرآن خطر لأنها تعلمهم الإرهاب).

وفي العراق كان قد قال من وضعه الصليبيون رئيسًا له: (متى نعيد إلى محمد أوراقه الصفراء التي جاءنا بها من جزيرة العرب؟!)، رغم أن جدّ هذا القائل هو صلاح الدين الأيوبي الذي أذل الصليبيين بهذا الدين العظيم.

وعمومًا فما لم تُحفظ الأوضاع العامة لا يستطيع أحد حتى قراءة القرآن أو حتى الطهارة الشرعية أو أداء الصلاة وليراجع الناس ما حدث للمسلمين في الأندلس وكيف كانوا يراقبون استخدام البيوت للمياه، فإن كان المعدل عاليًا دل على أنه مسلم لم يتنصّر بعد، لأنه يتوضأ ويغتسل!! والمعاصرون هم في نفس الحقد والوحشية والحيوانية مع التلون العصري .. والشواهد المعاصرة أشنع مما سبق وهى لا تُحصى من جوانتناموا إلى أبي غريب إلى السجون الطائرة والعائمة والسرية .. إلى التعذيب بالوكالة إلى التآمر على المسلمين لتفتيتهم وإنشاء ودعم المنظمات التي تعمل على تفتيت المسلمين بإنشاء نزاعات داخلية في الأمة .. إلى دفن النفايات النووية في بلاد المسلمين.

ولهذا قال الإمام الشاطبي عن الفروض الكفائية العامة أنها أهم وهي الأصل للعبادات وللفروض العينية الفردية، يقول رحمه الله تعالى[١]:

«فأما المقاصد الأصلية، فهي التي لا حظّ فيها للمكلف، وهي الضروريات المعتبرة في كل ملة، وإنما قلنا إنها لا حظّ فيها للعبد من حيث هي ضرورية لأنها قيام بمصالح عامة مطلقة لا تختص بحال دون حال ولا بصورة دون صورة ولا بوقت دون وقت، ولكنها تنقسم إلى ضرورية عينية وإلى ضرورية كفائية.

التكاليف العينية والكفائية:

فأما كونها عينية: فعلى كل مكلف في نفسه فهو مأمور بحفظ دينه اعتقادًا وعملاً، ويحفظ نفسه قيامًا بضرورية حياته، ويحفظ عقله حفظًا لمورد الخطاب من ربه إليه ويحفظ نسله التفاتًا إلى بقاء عوضه في عمارة هذه الدار ورعيًا له عن وضعه في وضعية اختلاط الأنساب العاصفة بالرحمة على المخلوق من مائه وبحفظ ماله استعانة على إقامة تلك الأوجه الأربعة. ويدل على ذلك أنه لو فرض اختيار العبد خلاف هذه الأمور لحجر عليه ولحيل بينه وبين اختياره، فمن هنا صار فيها مسلوب الحظ محكومًا عليه في نفسه، وإن صار فيها حظ فمن جهة أخرى تابعة لهذا المقصد الأصلي.

وأما كونها كفائية: فمن حيث كانت منوطة بالغير أن يقوم بها على العموم في جميع المكلفين لتستقيم الأحوال العامة التي لا تقوم الخاصة إلا بها، إلا أن هذا القسم مكمل للأول، فهو لاحق به في كونه ضروريًا، إذ لا يقوم العيني إلا بالكفائي، وذلك أن الكفائي قيام بمصالح عامة لجميع الخلق، فالمأمور به من تلك الجهة مأمور بها لا يعود عليه من جهته تخصيص؛ لأنه لم يؤمر إذ ذاك بخاصة نفسه فقط وإلا صار عينيًا، بل بإقامة الوجود وحقيقته أنه خليفة الله في عباده على حسب قدرته وما هيئ له من ذلك، فإن الفرد الواحد لا يقدر على إصلاح نفسه والقيام بجميع أهله فضلاً عن أن يقوم بقبيلة فضلاً عن أن يقوم بمصالح أهل الأرض، فجعل الله الخلق خلائف في إقامة الضروريات العامة حتى قام الملك في الأرض»[٢].

ومعنى هذا الكلام:

١- أن الخطاب بالكفائي متوجه إلى جميع المسلمين فردًا فردًا.

٢- أن الفرض الكفائي أهم من العيني لأن العيني لا يقوم إلا بالكفائي.

٣- القيام بالفرض الكفائي قيام لمصلحة عامة، فهم مطالبون بسدها على الجملة، فبعضهم قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلاً لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها مباشرة، قادرون على إقامة القادرين. فالقادر مطلوب بإقامة الفرض وغير القادر مطلوب بتقديم وإعانة ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة والإعانة من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٣].

وإن كان جماع الدين أصلان أن يعبد الله وحده وأن يعبد بما شرع على ألسنة رسله في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، فعبادة الله سبحانه وتعالى تكون بالتكليفات الشرعية وذلك على أربعة أنحاء:

---

(١) نقلاً عن كتاب الطريق إلى الجنة، للشيخ عبد المجيد الشاذلي حفظه الله.
(٢) الموافقات، كتاب: المقاصد، جـ٢، ص ١٧٦، بتصريف يسير.
(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٩، بتصريف. طبعة دار المعرفة، بيروت.

تكليف عيني: عبادي أو عادي.

تكليف كفائي: عبادي أو عادي.

العبادي هو التعبدات التي تفتقر إلى نية التعبد، وهي حق خالص لله سبحانه وتعالى، والعادي هو المعاملات بين العباد والعادات الراجعة إلى محاسن الشيم ومكارم الأخلاق وهو راجع إلى حق الله وحق العبد لا يفتقر إلى نية التعبد، ووجه العبادة فيه هو الرجوع إلى شرع الله وما أمر فيه والموالاة على هذا الشرع.

فالتكليف العيني العبادي: كأداء الصلاة والصيام.

والتكليف الكفائي العبادي: كإقام الصلاة.

وإقام الصلاة غير أداء الصلاة، فأداء الصلاة لا يحتاج فيه الإنسان إلى معونة غيره فصار عينيًا، ولكنه رغم ذلك يحتاج إلى الاجتماع مع غيره في الجمع والجماعات. أما إقام الصلاة فمسئولية تضامنية لا يستطيع الفرد القيام بها بمفرده ولابد له من معونة غيره فيها فإقام الصلاة يقتضي: اتخاذ المساجد ووضع القراء والعلماء والمفتين لها والعناية بها، وإقام الصلاة يقتضي إجبار المكلفين على فعلها وقتال من تركها أو عاند في تركها، وإقامة الحكام والقضاة والملوك وترتيب الأجناد لذلك، وكإيتاء الزكاة وسائر التكليفات الشرعية المتعلقة بحق الله الخالص.

والتكليف العيني العادي: مثل بر الوالدين، وصلة الرحم، ورعاية الجار، وإغاثة الملهوف، وإعانة الرجل على دابته، وإماطة الأذى عن الطريق، كل ذلك يفعله الإنسان بمفرده، دون حاجة إلى معونة غيره.

وأما إقامة الأحكام الشرعية من قطع يد السارق، وجلد أو رجم الزاني، وقتل القاتل، وقتال المحاربين المفسدين في الأرض والقضاء بين الناس بالعدل الذي أمر الله به في شرعه، فكل ذلك لم يخاطب به الإمام أو الأمير أو القاضي أو القائد بمفرده وإنما خوطب به الذين آمنوا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤]، ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فالخطاب للجماعة ولا يمكن ذلك بمباشرة كل فرد في هذا التكليف، وإنما يكون بإقامة السلطة الشرعية التي تقوم بذلك، وإقامة هذه السلطة هو مسئولية تضامنية يحتاج فيها الإنسان إلى غيره ولا يمكن أن يقوم بها بمفرده.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

يقول ابن كثير في تفسيرها: «يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]».

وأقول[1]: ذكر الله سبحانه وتعالى (الفرد) في قوله: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ أي: في نكوثه عن القيام بواجبه، وذكر (القوم) في الاستبدال وهم الجماعة وذلك دليل على أن النصرة بالجماعة من خلال جهد الفرد وقيامه بواجبه.

المسئولية الفردية والاجتماعية والتضامنية:

وإذا كان للفرد العادي:

١- **مسئولية فردية** لا يحتاج فيها إلى غيره **ويؤديها منفردًا**، كأداء الصلاة.

٢- **ومسئولية فردية** لا يحتاج فيها إلى غيره، ولكن **يؤديها في جماعة مع الآخرين من المسلمين**، مثل إقام الصلاة.

٣- **ومسئولية تضامنية** كإقامة الدولة المسلمة التي تقيم الملة والشريعة وتحفظ البيضة وتجاهد الأعداء وتضع إطار الولاء والبراء لجهد الأفراد حتى لا يخرج عنه حسبما شرع ربنا سبحانه وتعالى.

يقول النبي ﷺ: «المسلمون أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وهذه المسئولية يحتاج فيها الفرد إلى غيره ويتعاون ويتضامن فيها مع غيره من باب التعاون على البر والتقوى، وهو مسئول عنها أمام الله كمسئوليته التي لا يحتاج فيها إلى جهد غيره معه، إننا كأفراد مسئولون عن توثيق عرى الأخوة فيما بيننا، يسعى كل منا إلى غيره من أجل ذلك، حتى نعتصم بحبل الله جميعًا وهو الجماعة، ولا نتفرق كما أمرنا سبحانه وتعالى، ومسئولون عن جهاد عدونا: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

يقول ربنا عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٢ - ٤]، ويقول عز وجل: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٢٩].

أقول: إذا كان الفرد العادي مسئولاً عن كل ذلك، فإنه مسئول أيضًا عن فعل غيره، بالنصيحة وتغيير المنكر ودفع الظلم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، يقول ابن جرير في تفسيرها: «حدثني المثنى قال حدثنا أبو صالح قال: حدثنا معاوية عن علي عن ابن عباس: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال: أمر المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب».

---

(١) الكلام متصل من كتاب الطريق إلى الجنة.

ويذكر ابن كثير في تفسيرها أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ وأقوال موقوفة عن أبي حذيفة وعن النعمان بن بشير كلها تدور على هذا المعنى ومنها:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا إسحاق يحدث عن عبيد الله بن جرير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروا إلا عمهم الله بعقاب»(١).

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم. متفق عليه.

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا لم نؤذ من فوقنا فإذا تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان رجل يلقى الرجل فيقول له يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم بعض ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١]، إلى قوله: ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»(٢). معنى تأطرونهم: أي تحملونهم على الحق. وتقصروهم: أي تحبسونهم عليه.

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، و إني موضعها، و إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه»(٣).

يقول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»(٤)، (٥).

---

(١) يقول ابن كثير: مما رواه أيضًا عن وكيع عن إسرائيل وعن عبد الرازق عن معمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي إسحاق السبيعي به وأخرجه ابن ماجه عن علي بن محمد عن وكيع به.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه أحمد، ابن كثير تفسير الآية.

(٤) رواه البخاري وأبو داود عن ابن عمر.

(٥) الطريق إلى الجنة، الشيخ عبد المجيد الشاذلي حفظه الله.

افتقاد الثبات في المواقف والتزعزع

قد يترتب الكثير على موقف ثبات لشخص ما .. إما لأهله أو لإخوانه أو لأمته .. إما بيانًا لحق شرعي، أو فضحًا لظلم، أو منعًا لخيانة ما.

كثير من الحق قد يظهر ويبقى في التاريخ كله ويُحيي آلافًا وآلافًا بسبب موقف شخص أو عُصْبة.

وكثير كذلك ضاع وفُقد وتسبب في إذلال الأمة في مرحلة ما، بل وابتلاع أعدائها لها بسبب موقف خائن، أو تراجع أو جهل لشخص ما أو عُصْبة ما.

والإنسان موقف .. والرجل موقف ..

تتغير أحداث كثيرة ويتغير خط أمة .. ويتغير خط التاريخ بسبب موقف شخص ما أو عصبة ما.

والمطلوب للموقف المُرضي لله تعالى العلم والبصيرة، والقوة، والإخلاص لرب العالمين وحصيلة سابقة ورصيد سابق في المعاملة مع الله تعالى.

والموقف المرضي لله تعالى هو من الصدق كما قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأصل النحب النذر، ثم استعمل للموت.

والتغير فيه كذب على الله:

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ [النحل: ١٠٥ - ١٠٦].

ولكن كم ممن خان وضيع حقوقا للأمة أو أخر بيان الحق الذى يجب أن تعلمه، فتسبب فى استمرار غربة الاسلام واستضعاف أهله وضياع مقدرات الأمة وامتلاك أعدائها لها وطمع من لم يحلم يوما بأن ينال شيئا من هذه الأمة ـ طمع أن ينال منها ما يدعو للأسى !! .. وكل هذا بسبب رغبات شخصية تافهة والانفصال عن طموحات الأمة .. أو بسبب ضعف شخصى افتقد صاحبه الاعتصام بالله تعالى والتوكل عليه ..فيقعد المسلمون بسبب هذه الصفقات الخاسرة أربعين أو خمسين سنة أو قرونا فى أثر هذه الخيانات .. والأمثلة كثيرة ومحزنة.

* * *

وشفاء هذا هو أن يفهم المؤمن أن النجاح في الموقف إنما هو حصيلة لرصيد سابق لابد أن يعدّه .. وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وأن يعلم المؤمن أن النجاح جائزة: ﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [الحجرات: ٣].

وأن ينظر إلى صدقه ويراجعه ويفتش فيه .. فمن تعود الصدق .. صدق في موقفه كأنس بن النضر.. قال أنس: عمي الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا قال: فشق عليه. قال: أول

مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه وإن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد. قال: فاستقبله سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة أجده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قُتِل. قال: فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾، قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه»[1].

وكحديث الرجل الذي قال: إنما بايعتك على أن أرمي بسهم هاهنا فأدخل الجنة.. قال الإمام النسائي: أخبرنا سويد بن نصر قال أنبأنا عبد الله عن بن جريج قال أخبرني عكرمة بن خالد أن بن أبي عمار أخبره عن شداد بن الهاد: أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبيًا، قسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال: «قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك».

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل، قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو»؟ قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه». ثم كفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا أنا شهيد على ذلك»[2].

وأن يعلم أن الكذب واكتسابه والتعود عليه قد يخونك في موقف أنت في أشد الحاجة إلى رحمة الله ليثبتك، والمعصية سبب الخذلان، يقول ابن القيم: «تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الوليّ، فلا تظن أن الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض»[3].

وهنا الحديث: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة .. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ..».

والصدق في المواقف من أعظم البر كما أن الكذب فيها من أعظم الفجور.

كذلك ليعلم المؤمن ويعد نفسه على تجنب الكذب .. وإلا فالكذب في الموقف هو محصلة لكذب سابق.

كذب في الكلمة كذب في مواقف وأعمال .. كذب بأعمال مخالفة لمنهج الله.

* * *

(١) صحيح مسلم، جـ ٣، ص ١٥١٢.
(٢) سنن النسائي، جـ ٤، ص ٦٠. قال الشيخ الألباني: صحيح
(٣) الفوائد، جـ ١، ص ٦٨.

والشفاء كذلك أن ينظر إلى نماذج النجاح التي جُعلت أسوة للبشرية:

موقف نوح عليه السلام: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

موقف هود عليه السلام: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وكلاهما كان عنده من التوكل ورؤية الأمور بيد الله تعالى ما جعله يقف مثل هذا الموقف.

موقف المؤمن في سورة يس: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

موقف مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ ﴾ [غافر: ٢٨ - ٢٩].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٥].

﴿ مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٠ - ٤٥].

وموقف السحرة: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢ - ٧٦].

موقف أصحاب البروج: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ٥ - ١٠].

وليستقي منهم كيف صمدوا فيصمد .. كان في أصحاب البروج ناس عاديون رجال ونساء ضعاف وشيوخ حتى الصبي .. حتى أنطقه الله.

«﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾، وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنما يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع!

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له. وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور.

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه. فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مُكْنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدًا ومعنى كبير جدًا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب .. يعقب به السياق»[1].

* * *

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

والعلاج كذلك أن ينظر في الأمر ..كيف يَثْبُت .. فبالإضافة إلى الرصيد السابق من الصدق والتعود عليه هناك عبودية في الموقف نفسه:

أولاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فالمطلوب هو أن تعلم أن عندك قوة ولابد من استعمالها كاملة، فتثبُت أنت بقدر طاقتك عالمًا بعظم الموقف وخطورة التراجع ، وتعلم أن ما ستفعله فى هذا الموقف من ثبات أو تراجع مكتوب عليك وباسمك في الآخرة.

وألا تستضعف نفسك .. وهذا واضح في أمره تعالى بالثبات ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ وهو يأمر بهذا وهو يعلم تمامًا سبحانه تفاوت الناس في قدراتهم .. **هذا جانب لكنه لا يكفي.**

فالجانب الآخر: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، والذكر ليس فقط باللسان بل لسان مواطئ لقلب وجسد موجود حيث أمره الله ويفعل ما أمره الله .. فالاعتصام بالله والافتقار له .. والاستعانة بحوله وقوته أساسٌ للثبات.

* * *

وتأكيدًا لنفس المعنى هو هذا النموذج:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فـ ١ - ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾. ٢ - ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾.

فمن وقف بحول نفسه وقوته فشل .. وأما التوكل فلا يتحقق شرعًا إلا إذا قدم العبد السبب ثم يفوض الأمر لله تعالى محسنا للظن به مستيقنا فيه معتمدا عليه تعالى الاعتماد الكامل ومفوضا الأمر اليه..

والسبب هو الثبات في الموقف بما آتي الله المؤمن من طاقة ومن قوة .. وكم من ضعيف كان كأمة .. وكم من ضعيف كان أقوى من أمة وكم من ضعيف أنقذ أمة .. أو على الأقل أنقذ أهله .. أو حتى ينقذ نفسه.

ومواقف الإشهاد هذه قد تكون في موقف فتنة في عقيدة[1] أو موقف أمام شهوة وهوى .. أو موقف أمام تخويف وإيعاد.

* * *

(١) كمواقف الصحابة الكرام، ثم كموقف الإمام أحمد، وكمواقف الشهداء في العصر الحديث الذين وقفوا في وجه العلمانية (اللادينية).

الارتباط بالأشخاص في التعبد

كثير من يرتبط في مواقفه أو منهجه أو حياته بشخص ما .. فإن فقد الشخص بموت أو غياب أو حتى فتنة انقلب الآخرون. وإن انحرف انحرفت وراءه جموع.

وعلاج الأمر:

أولاً: ما قلناه في مسئولية الإدراك ومسئولية الموقف وما قررته الآيات من مسئولية السمع والبصر والفؤاد وما قررته من مسئولية الإرادة ، (وليراجع ما قلناه فى داء التبعية والامعية).

ثانيًا: ما نص عليه القرآن في شأن أعظم الخلق محمد ﷺ فلما أشيع مقتله ـ بأبي هو وأمي ﷺ ـ في أُحُد فقعد البعض وانصرف عن القتال، فعيب عليهم هذا وخوطبوا بخطاب يوطّنوا به أنفسهم عند موته فعلاً ﷺ وقد فهم هذا العمق أبو بكر ﷺ فقام بهذه الآية كما أمر.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

وفي الآية وجهان في قراءة حفص:

١ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ ﴾ ثم تستأنف ﴿ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا ﴾، ويكون النص هنا على قتال الأنبياء للكفار وأنها سنتهم ومنهجهم، وأن ما أصاب النبيين والرِّبيّين من الأذى في سبيل الله تعالى لم يوهن عزمهم فلم يضعفوا عن عدوهم وعن طلبه.

٢ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا ﴾، ويكون النص هنا على قتال الرَّبيين مع أنبيائهم كلٌ في وقته وزمنه.

والقراءة الأخرى هكذا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾، وفيها أيضًا الوجهان السابقان:

١ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ ﴾ ثم تستأنف ﴿ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا ﴾، ويكون النص هنا على الأنبياء الذين استشهدوا في سبيل الله فلم يَهِن الرَّبيون من بعدهم في الطريق ولم يبدلوا ولم يركنوا إلى عدوهم.

٢ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا ﴾، ويكون النص هنا على قتل واستشهاد كثير من الرَّبيين، فلم يهن من بقى منهم من بعدهم ولم يضعفوا أمام عدوهم ولم يركنوا له.

فهؤلاء أنبياء قاتلوا في سبيل الله ومنهم من قُتل .. فمن معهم من الربيين لم يهنوا ولم يضعفوا بعد نبيهم ولم يستكينوا ولم يركنوا إلى عدوهم ولم يتخلوا عما حملوه من الأمانة.

على هذا يوطن المؤمن نفسه .. وهكذا وطّن أبو بكر نفسه رغم حبه الشديد لرسول الله حتى نقل عنه ابن إسحاق في السيرة: (ما زال جسده يحري بعد وفاة رسول الله) يعني: يضعف ويذوي حزنًا على فراقه، لكن مع هذا الحب الشديد كان أسد الإسلام حتى قال العلماء من أئمة التابعين كسعيد بن المسيب ومن بعدهم كسفيان وغيره ومن بعدهم كما روى الإمام أحمد في فضائل الصحابة قولهم: (لولا أبو بكر لذهب الدين).

وهذا ما فهمه الأنصاري الكريم يوم أُحُد؛ فقد مر مهاجريّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له أتشعر أن رسول الله قد قتل؟ فقال الأنصاري وهو يجود بنفسه: أما رسول الله فقد بلغ، فذودوا عن دينكم.

ونحن نقول الآن إلى قيام الساعة أن رسول الله مات، وأن العلماء والدعاة من بعده سيلحقونه ..

والخطاب لنا ولمن بعدنا: **فذودوا عن دينكم** ..

* * *

obeikandl.com

صاحب الشهوة والركون إلى الدنيا

في هذا العصر ومع غلبة الغرب على المسلمين نشروا إباحيتهم بل وضغطوا لاتساع مجالها .. ومع غيبة عقلاء الأمة وحكمائها صار أصحاب الشهوات حَمَلَةَ راية لترسيخ الإباحية وتغيير عقلية المسلمين وتربية أبنائهم على أساسها .. وليسوا أصحاب شهوات على جهة الفسق فقط.

أصبح هؤلاء من يوجهون ويضغطون الإعلام والإعلان والتعليم والأوضاع العامة بل وحمايتها تحت مسميات: الفن، الحرية، والحداثة .. وليس لهم من هذه الصفات شيء لكنها مجرد الشهوة مزوقة.

وصارت مداعبة هذه المشاعر واستدعائها بل والضغط عليها ودغدغتها منهجًا ثابتًا .. زيادة إلى أنها غريزة مخلوقة في الناس لأداء وظيفة مقصودة .. والنتيجة أن طغى الانحراف واستعلن حتى صار البعض يقول لولا الشهوة لكنت متدينًا.

وصار صرف الشباب بالذات عن دينه وعن قضايا أمته من هذا الباب.

* * *

وعلاج الأمر له مآخذه، أيُّ مأخذ منها ينجع في نفس العبد فليأخذه.

فمن نظر في كتاب الله تعالى طالبًا شفاء مرضه وجد القرآن يصف هذه الشهوة بالذات ـ شهوة النساء ـ والميل بسببها إلى الزنا سماها مرضًا: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، على أحد القولين في الآية وهو الراجح في هذا الموطن، ولعلاجه في القرآن مآخذ:

١- النظر في آيات الوعيد وتصوير القيامة والنار وتصورها تصورًا تامًا، فإن الله تعالى أنزلها يخوف بها عباده ليتقوا سخطه تعالى، يقول بعض العُبّاد: (إن الخوف إذا سكن القلب طرد منه الشهوات).

٢- استهداف الغاية التي كلفنا الله بها وخلقنا من أجلها .. فإذا انشغل بها العبد أخذت الشهوة حجمها الطبيعي: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وهي غايات تحتاج لأعمار وجهود، وهي غايات مباركة .. تحبها الفطرة ولها في عمقها صدى .. وفِطرُنا تلتذ بهذا الجهد وبهذا العطاء .. وتذوق به ما تتضاءل لذّات أخرى بجانبها، وفي الحديث: «جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى باب من أبواب الجنة ينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم»[(١)].

ونقصد بالجهاد بذل الجهد عمومًا لله تعالى إن كان دعوةً أو بلاغًا أو قتال ذود عن حياض الأمة وإعلاءً لكلمة الله .. وذلك أن من يعمل لله تعالى يجد من اللذة والنعيم والمتعة في البذل والعطاء لله تعالى ما يملأ صدره ويريح قلبه، ويستغني به عن اتساع حجم الشهوة في نفسه.

ولا نعني بكلامنا ترك ما أباح الله .. لكن يأخذ كل شيء حجمه في نفسه ثم يباشر ما أباحه الله تعالى.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٥، ص ٣١٤.

فالقاعدة الهامة جدًا هنا أن الكثير من الشهوات وسلطانها المستولي على النفس نابع من الفراغ، فإذا جاءت الشهوة العارضة فصادفت قلبًا خليًا تمكنت به واستولت على صاحبه، والشر يرجع عمومًا إلى العدم من الخير[1]، أما إذا صادفت قلبًا ممتلئًا بحب ربه وإيثاره وإيثار مرضاته وخوفه والانشغال بمهام الوصول إليه، فلا يمكن لهذه الشهوات أن تتمكن منه بل لها حجمها الفطري محكومة بأمر ربه الذي يحكّمه دومًا على أعماق نفسه.

وانظر ما قاله شيخ الإسلام عن عشق امرأة العزيز ليوسف أنه إنما كان لشركها، وكذا ما حكاه القرآن عن عشق قوم لوط للغلمان إنما كانوا مشركين .. توزع الحب في قلوبهم وفرغ من إرادة الله تعالى وحبه .. أما الممتلئ بحب ربه تعالى مفردًا إياه بإرادة قلبه فلم يحك عنهم تعالى هذا، فإن يوسف عليه السلام لم يعشق امرأة العزيز لتوحيده وامتلاء قلبه بحب ربه تعالى.

* * *

٣- التوق إلى المعالي والعيش الكريم، وطلب القرب والجوار لرب العالمين في جنته.

وانظر إلى آيات آل عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم أعقبها تعالى بالبديل الأخروي: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥].

يقول البيضاوي: «وقد نبه بهذه الآية على نِعَمِه؛ فأدناها متاع الحياة الدنيا، وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، وأوسطها الجنة ونعيمها»[2].

فمن أراد العلا .. وكانت نفسه له تواقة لم يجد أعلى من هذا الذي طلبه الأولون والآخرون من الصالحين.

وانظر إلى اعتدال هذا الدين في كلام الحافظ ابن كثير: «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه: «وإن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساءً»، وقوله ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»، وقوله في الحديث الآخر: «حبب إليَّ النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل. وفي رواية: من الخيل إلا النساء.

---

(١) راجع ابن القيم، مدارج السالكين،حيث يقول رحمه الله « يقول رحمه الله :« فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه» مدارج السالكين ، جزء ٢، صفحة ١٩٩».

(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٥.

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعًا ..

وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخرًا ونواءً لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله»[(١)].

* * *

٤- النظر إلى البديل الأخروي من نفس جنس ما نهاك عن قرب بعض أنواعه في الدنيا .. وهو تفصيل ما أعده الله تعالى في الجنة من نفس جنس ما يترك من أجل الله تعالى:

- «﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٣]، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه»[(٢)].

«وحور كأمثال اللؤلؤ في الصفاء والنقاء المكنون المصون. قال الزجاج: كأمثال الدر حين يخرج من صدفه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال»[(٣)].

- ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٤ - ٣٨].

يقول ابن القيم: «وذكر المفسرون في تفسير العُرُب أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم، وقال البخاري في صحيحه: عربًا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر وتسميها أهل مكة: العربة، وأهل المدينة: الغنجة، وأهل العراق: الشكلة والعُرُب والمتحببات إلى أزواجهن، هكذا ذكره في كتاب "بدء الخلق" وقال في كتاب "التفسير" في سورة الواقعة عربًا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصُبُر تسميها أهل مكة العربة وأهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة. قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن»[(٤)].

ويقول النسفي: «﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا، ﴿ عُرُبًا ﴾ عربًا (حمزة وخلف ويحيى وحماد)[(٥)]، جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل، ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين وأزواجهن كذلك»[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٤٦٨.
(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٣.
(٣) تفسير النسفي، جـ ٤، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤) حادي الأرواح، جـ ١، ص ١٥٦.
(٥) أي هكذا قرأها حمزة وخلف ويحيى وحماد.
(٦) تفسير النسفي، جـ ٤، ص ٢٠٨.

ويقول ابن كثير:«﴿ عُرُبًا ﴾ متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة»(١).

ويقول أيضًا: «وقال مجاهد: الأتراب المستويات وفي رواية عنه الأمثال وقال عطية الأقران وقال السدي: ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أي: في الأخلاق المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد يعني: لا كما كن ضرائر متعاديات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن عبد الله بن الكهف عن الحسن ومحمد: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قالا: المستويات الأسنان يأتلفن جميعًا ويلعبن جميعًا»(٢).

- ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٨ - ٤٩].

يقول ابن كثير: «قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون وينشد هاهنا بيت أبي دهبل الشاعر وهو قوله في قصيدة له:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ... ميزت من جوهر مكنون

وقال الحسن: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يعني: محصون لم تمسه الأيدي، وقال السُدّي: البيض في عشه مكنون، وقال سعيد بن جبير ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يعني: بطن البيض وقال عطاء الخراساني هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة وقال السدي: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يقول بياض البيض حين نزع قشرته واختاره ابن جرير لقوله مكنون قال والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم»(٣).

ويقول :«وفي بعض الأحاديث: رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقىء»(٤).

- ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٦ - ٥٩].

يقول ابن كثير«أي: غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئًا في الجنة أحسن من أزواجهن قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك ولا في الجنة شيئًا أحب إليّ منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك.

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾، قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب عن عمرو بن ميمون الأودي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها»، وذلك

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٦٩.
(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٩.
(٣) المصدر السابق، جـ ٤، ص ١٠.
(٤) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٩.

قول الله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه وهكذا رواه الترمذي»[1].

- ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٧٠ - ٧٥].

يقول ابن كثير:«وقيل: خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه قاله الجمهور وروي مرفوعًا عن أم سلمة وفي الحديث الآخر أن الحور العين يغنين: «نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام» ..

ويقول:«.. قال البخاري: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»، ورواه أيضًا من حديث أبي عمران به وقال ثلاثون ميلاً وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران به ولفظه: «إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»[2].

- ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ: ٣٣]، «أي: نواهد يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عرب أتراب أي: في سن واحد كما تقدم بيانه في سورة الواقعة»[3].

* * *

٥- معرفة السفح الذي يريد الشيطان منا الوصول إليه:

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩].

﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٨]، يعني: قاعا ليس له حدود.

وقد سمعنا في الغرب ما هو أغرب من الخيال، وما لا تشتهيه البهائم .. من الزنا المطلق إلى زنا المحارم إلى الزنا بالحيوانات إلى القتل مع الزنا .. قتل حقيقي!!.

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «إنهم يدعون الشيطان - عدوهم القديم - ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال. ذلك الشيطان الذي لعنه الله. والذي صرح بنيّته في إضلال فريق من أبناء آدم، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية، من لذة كاذبة، وسعادة موهومة، ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٥٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٥٧.
(٣) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٥٩٨.

والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات؛ ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة. والمسلم يكافحه في ذات نفسه، كما يكافحه في أتباعه .. معركة واحدة متصلة طوال الحياة.

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم. ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك:

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾.

ويصور السياق القرآني فعل الشيطان مع أوليائه، في مثل حالة الاستهواء:

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك. ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها، ولكان الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها.

وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله، فيراه حسنا! ويعده الكسب والسعادة في طريق المعصية، فيعدو معه في الطريق! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة!. وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا»[1].

وانظر إلى شياطين الإنس ماذا يريدون؟ إنما هو استيراد إباحية الغرب، وهي لا تقف عند حدود؛ فإباحية مطلقة ثم إباحية مع المحارم، وشذوذ، وما يعقبه من أمراض يقول المجرمون عنها: إنها أمراض الحضارة المعاصرة وعليهم أن يأخذوها بأمراضها!! فأي شخصية ستنتج؟ أي دين أو عرض أو وطن إسلامي سيدافع عنه هذا المسخ؟ فلينظر العاقل .. لنفسه ولأمته.

* * *

٦- النظر في هذا المثل .. وهو مثل ضربه الله لعالم سوء لم يضل، ولكنه غوى .. لم يضل لأنه يعلم ولكنه غوى ثم حق عليه الضلال وصار من الضالين لأنه لما لم يعمل بعلمه صار كمن لا يعلم ..

إنه أراد الدنيا وشهواتها واستولى عليه حرارة طلبها التي تتقد جمرتها في قلبه وتلح عليه وتضغط ولم يملك من الصبر طلبًا للآخرة ما يمنعه عنها .. ثم دخل في زمرة الضُلاّل لمّا لم يعمل بعلمه، ولحق بهم:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [النساء: ١٧٥ - ١٧٧].

يقول ابن القيم: «فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا وهمته لا تتعدى بطنه وأشدها شرهًا وحرصًا ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة ـ منتنة الريح ـ أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدا يتناول منها شيئًا إلا هرّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قُوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع، قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها؛ فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء وإذا عطش أكل الثرى من العطش وإن كان فيه صبر على الجوع..

وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث فهكذا مشبَهه، شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى خير كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث. وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك. وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه. وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته وقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾.

ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها أنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم فإن هذا كان من العلماء وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئنا فضّلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها.

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم يعني: الذين حاربوا موسى وقومه. وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل.

فإن قيل الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفى قبلها أو ينفي ما أثبت كما تقول لو شئت لأعطيته لكني لم أعطه ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته فالاستدراك يقتضي ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ أو لم نرفع فكيف استدرك بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾.

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني وذلك أن مضمون قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٦٥ - ١٦٩. باختصار.

افتقاد الهدف والحيرة والفراغ من الاهتمامات المحترمة .. والاهتمام بالسفاسف والتفاهات

وهذا التفريغ نابع من غياب الإسلام كهدف وكمشروع حضاري عاش له الملايين قرونًا ..

ونابع من غلبة الإذلال والاستعباد ..

ونابع من تفاهة التوجيه المفرغ والذي هو دون ما جبل عليه الناس فضلاً عن أن يرفعهم.

والمؤمن لا يقبل أن يضيعه أحد، أو يفرغه من اهتماماته، أو يفرغ أهله وولده وأحفاده ليكونوا مسخًا جاهزًا للذبح في الدنيا من العدو كقسط معجل على التخلي عن هذا الدين، وجاهزًا للنار في الآخرة.

* * *

وعلاج الأمر هام .. ومن نظر في كتاب الله تعالى وجد أن غاية المؤمن أن يستهدف ما أراده الله منه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»[1]. الحديث.

والشرع متطابق مع الفطرة .. فما أُمرنا به قد خلقنا من أجله .. وهذا متوافق مع ذاك.

فمن أراد أن يستهدف هدفًا شريفًا ويحيا حياة محترمة تستهدف هدفًا محترمًا .. فليكن همه وجهده تحقيق هذا الدين في نفسه، وفي غيره دعوةً وتوضيحًا وبذلاً وجهدًا وتمكينًا وإعلاءً لكلمة رب العالمين .. وهذا جهد مبارك وحياة مباركة ..

والآخرة خير وأبقى .. فانظر فيم تنفق عمرك .

وهذه الكلمات القليلة تكفي لمن أراد الله تعالى هدايته .

* * *

(١) صحيح البخاري، جـ١، ص ٥٨، أخرجه مسلم في الإمارة باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم ١٩٠٤.
كلمة الله: كلمة التوحيد ودعوة الإسلام.
العليا: العالية فوق كل ملة ومذهب.

افتقاد اليقين أو نقصه أو زعزعته

وهو مرض تعاني منه بعض القلوب .. إما غيابه وافتقاده، وإما ضعفه أو نقصه، وهذا في الجانب العلمي منه .. وقد يكون في الجانب العملي منه.

وهو ألم شديد من أشد ما تعاني منه النفس، وهو مما عُبِّر عنه في القرآن بما حكاه عن المشركين قولهم: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤]، على بعض الأقوال .. فالشك حيرة ولهيب بالنفس .. والطمأنينة واليقين بَرْد وسلام على النفس.

كما نص القرآن على أنه مرض، ففي أول البقرة: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وهو الشك في أحد القولين.

وشفاء هذا المرض باكتساب اليقين إنما يكون كذلك من كتاب الله تعالى.

ويخطئ من يظن أن القرآن إنما هو فقط تكاليف تأتي لمن علم وأقر بصحته وأن على الإنسان أن يطلب صحته أولاً من خارجه .. هذا خطأ، فالقرآن فيه الطريقة التكليفية، وفيه الطريقة البرهانية .. فهي برهانية استدلالية عقلية لأنها تخاطب العقل، وهي شرعية لورودها فيه[1].

ومن أهمل هذا وقع في أخطاء عظيمة فإنه لما أعرض البعض من المتكلمين عن هذا الطريق وظنوا أن خطاب القرآن خطاب تكليفي فقط وليس برهانيًا استدلاليًا .. عمدوا إلى منطق وقواعد لفلاسفة وثنيين كأرسطو وأفلاطون وأفلوطين المصري وغيرهم .. ولهذا قال الشافعي: (ما فسد المسلمون إلا لما تركوا اللسان العربي وعمدوا إلى لسان أرسطو طاليس)، ويقصد الإمام رحمه الله باللسان طريقة الاستدلال والتفكير الفلسفية البعيدة عن الفطرة ولا يقصد باللسان مجرد اللغة .. ويقصد بأرسطو طاليس أرسطو.

فلما فعلوا هذا زعموا أنهم يريدون بهذا كسر الفلاسفة والرد عليهم بمنطقهم الذي يفهمونه للاحتجاج عليهم بصحة الرسالة .. وكان ما عند هؤلاء زبالة التفكير البشري وبها جهالات كثيرة مخالفة للعقل..

فأخذوا منهم طريقتهم وحكّموها على القرآن والسنة فلم تستقم لهم: لعدم صحتها، ولعدم إتقانهم أيضًا لها ليميزوا بين خطئها وصوابها ليصححوا للفلاسفة منطقهم أولاً .. لكنهم لم يفعلوا فلم يتقنوا ولم يصححوا لهم ما كان ينبغي لهم أن يصححوه، فأخذوا بضاعة الفلاسفة المزجاة وحكّموها على الدين .. فلما لم تستقم لهم الأمور احتج عليهم الفلاسفة وظهروا عليهم بباطلهم وغلبوهم فعمدوا إلى جحد بعض الحق الذي جاء به الرسول وإلى تأويل نصوص شرعية صريحة وليّ أعناقها أو جحودها لتستقيم بزعمهم مع منطق هؤلاء، ففتحوا للناس بابًا عظيما لتأويل النصوص ..

حتى جاء الباطنية معتمدين في زندقتهم على هذه القاعدة من التأويل ومن أن ظاهر بعض الآيات غير مراد، ثم اختلفت فرق المتكلمين فيما تجحده وفيما تثبته .. فصاروا مختلفين في الكتاب مخالفين له متفقين فقط على مخالفته كما قال الإمام أحمد عنهم، فكانت نقطة اتفاقهم هي مخالفة طريقة القرآن العظيم

---

(١) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية.

.. ثم تمادت الأمور فانسحب هذا الكلام على صفات رب العالمين بل على طرق إثبات وجوده .. ثم جحدوا ظواهر القرآن في هذا الباب حتى قالوا: (اعتقاد ظواهر القرآن في باب الصفات كفر!!) ثم استفحل الأمر فجاء الملاحدة والباطنية فجحدوا جميع الدين وفرائضه وقالوا: كل هذه رموز مجردة لا يعرف أسرارها أحد غيرنا، واعتمدوا في زندقتهم على الباب الأول الذي فتحه المتكلمون المتأولون الذين فتحوا للناس باب التأويل وليّ أعناق النصوص والذين اتفقوا للأسف على أن الظاهر غير مراد فاحتج عليهم الزنادقة بهذا .. فكما قال شيخ الإسلام أنهم: (لا للفلاسفة كسروا ولا للإسلام نصروا)، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: (والنص الشرعي على ظاهره ألبتة) حتى يسد عليهم هذا الطريق المخالف لخطاب الله تعالى إلى خلقه[1]، والذي لم يعرفه الصحابة الكرام، ولهذا قال العلماء والأئمة المتقدمون: (ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين) يعني: أهل بدر من سادة الصحابة الذين ورثوا علم الرسول ﷺ، وقد قال ﷺ عن القرآن: «ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» وقد صدق وهو الصادق المصدوق.

* * *

ولهذا فالحق والصواب أن يُطلب الهدى من الاستدلال على صحة الرسالة من القرآن كما تُطلب فيه التكاليف التي نعلم بها تفاصيل ما يريد الله تعالى منا.

فاليقين مما ينتظمه القرآن ويدل عليه .. فليطلب فيه من أراد اليقين يقينه وعلاجه.

وانظر إلى كتاب الله تعالى:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٤].

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وللعلماء في اليقين هذا ثلاث أوجه كلها مطلوبة:

١- يوقنون: يعلمون حقائق الأشياء، وهذا قول الطبري.

٢- يوقنون: المشرفون على اليقين.

يعني: بعلمهم بالقرآن ونظرهم فيه فهم مقبلون ومشرفون على اليقين. وهذا مأخذ الإمام النسفي في مثل هذه الآيات في الإيمان واليقين ويستدل بكلام ابن عباس: من أراد الحج فليبادر فإنه يموت الميت[2].

٣- يوقنون: يطلبون اليقين، وهذا قول ابن كثير والبيضاوي.

فالقرآن يرغّب في طلب اليقين ويجعله مطلبًا لخيرة خلقه .. وهو البحث عن الحقائق بأدلتها، فقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقد نفى عنه رسول الله الشك، وما طلبه إنما هو درجة المشاهدة في اليقين يعني: الترقي في مدارجه .. بل كان عليه السلام من أول طريقه صاحب اليقين الثابت: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

* * *

(١) راجع كتاب حد الإسلام، المقدمة الأصولية، للشيخ عبد المجيد الشاذلي.
(٢) يعني: المشرف على الموت فسُمي ميتا لإشرافه عليه.

ومن نظر في كتاب الله تعالى وجد أدلة اليقين، وسنذكر هنا أربع نقاط:

أولاً: اليقين في الله تعالى سواء اليقين في وجوده ووحدانيته أو في وجوب تفرده بالعبادة.

ثانيًا:اليقين في الرسالة والرسول.

ثالثًا: اليقين في اليوم الآخر.

رابعًا: اليقين العملي (رسوخ الايمان الواجب).

obeikandl.com

أولاً: اليقين في الله تعالى .. سواء اليقين في وجوده ووحدانيته أو في وجوب تفرده بالعبادة

وللقرآن مآخذه فى هذا الشأن :

١ - معرفة الله تعالى والإقرار به والتوجه إليه وطلب النفوس له واللجأ إليه ضرورة فطرية يجدها كل إنسان في نفسه، وهذا في ذاته دليل، فالنفوس تحتار وتتعب ويصيبها سعير نفسي حينما تُحرم من التوجه لله تعالى والتعلق به سبحانه.

وهذه الضرورة دل عليها قوله تعالى لما أعرب بعض الأمم عن شكها فيما تدعوهم إليه الرسل، فكانت إجابة الرسل أننا ندعوكم لما هو مركوز في فطرتكم وتعرفه ولا تنكره، فنحن نأمركم بمقتضاه فهل الإقرار بالله تعالى وإخلاص التوجه إليه فيه شك .. ؟! هكذا عرضوا الأمر:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٠].

وفي الآية وجهان:

١- أفي وجود الله شك.

٢- أفي عبادة الله وحده شك.

وهكذا ذكر الله تعالى في كتابه أنه تعالى فطر عباده على هذا وأن لهذه الفطرة موقف وتاريخ .. وهذا الموقف والتاريخ ذكر تعالى أنه حجة، ولا يكون حجة إلا على هذا الوجه من الفطرة عليه وركوز المعرفة والاقرار والتوجه لله تعالى في فطرتنا .. وهو الإشهاد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤]، وكما ترى فقد جعله تعالى حجة لئلا يحتج المشركون بالتقليد، ونحن لا نذكر هذا الميثاق فعَلِمنا ـ كما قال العلماء ـ أن هذا الإشهاد قد حدث، ولسرعته لا نذكره اليوم، ولكنه بقي فطرة نُفطر عليها فنعرف ربنا سبحانه ونقرّ به ونتعرف على دينه إجمالاً، وتشهد له فطرتنا؛ فنجدها متعرفة على الدين ولو لم تعلم تفصيلاته حتى عدها ربنا سبحانه (بينة) تتنزل عليها آيات الوحي فتشهد لها: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧]، فالبينة هنا هي الفطرة الصحيحة.

وجعلها تعالى نورًا تشهد للنور النازل مع الوحي وتتلقاه: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ يعني: في قلب عبده المؤمن: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

وجعل هذا الدين دين الفطرة حتى صح البدل بين الدين والفطرة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

فهذه حجة .. لأنها من أين أتت؟ .. إلا أن خالق هذا المخلوق وضع فيه ما يتعرف به على ربه ويشتاق إليه ويفتقر إليه ويلوذ بجنابه تعالى ويجد في نفسه ضرورةً تطلبه تعالى .. فهذه وحدها حجة عظيمة ارتكز عليها خطاب الرسل للأمم سواء عندما أعربوا عن شكهم .. أو لم يعربوا؛ فقد عرضوا عليهم هذا الدين معتمدين على فطرتهم التي تعرف الله تعالى.

* * *

٢- هذا الاستدلال المباشر كمناقشة قوية على وجه التقرير:

أ- ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾، هذه واحدة فهو الاستدلال بأن كل شيء له أثر وما من موجود إلا له موجِد، فما من مخلوق إلا وله خالق شاءه على هذا النحو، وما من شيء واجب الوجود بذاته بل كل شيء لا يوجب وجوده شيء إلا وجود مشيئة عليا أرادته على هذا النحو، وهذا كما قال الأعرابي لما سئل عن دليل وجوده تعالى ووحدانيته فأجاب ببداهة فطرته وما هو مركوز فيها: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير . فأرض ذات فجاج وأنهار وسماء ذات أقمار ألا يدل ذلك على الله الواحد القهار؟!».

فسؤال الآية أنهم هل وُجدوا من غير خالق أراد وجودهم وأمر بهذا واعتنى بهم ورعاهم ورباهم وغذاهم وهيأ لهم أسباب الوجود وأسباب الاستمرار والحياة؟.

ب- ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا أشد امتناعًا مما قبله .. فهم لم يخلقوا أنفسهم ولم يخلقوا غيرهم ولم يدّع هذا أحد ولا يستطيع.

جـ- ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ ﴾ [الطور: ٣٦]، وهذا أشد وأشد امتناعًا مما قبله .. فبعد أن قررهم أنهم لم يخلقوا أنفسهم ولم يخلقوا غيرهم من البشر ولا ما هو أقل منهم من المخلوقات .. فهم لم يخلقوا ما هو أشد منهم خلقًا وأكبر: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم قال بعدها: ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٦]، برغم إيراد أدلة اليقين السالفة!.

ثم إن من خلق فله حقه تعالى في التعبد والطاعة له وحده دون شريك، وعلى هذا فُطرنا ولا نصلح إلا بهذا، ولذلك فلا بد أن يرسل رسلاً لتُعرف للناس ما يريده الله تعالى منهم .. فكان أيضًا استدلالاً على صحة الرسالة.

ثم طالما هناك أمر ونهي فكيف يستوي من ائتمر وانزجر ومن لم يفعل فاجترأ على الله تعالى وأمره ونهيه؟ إذن لابد من يوم آخر وحياة أخرى للمجازاة، كل هذا بدهي وفطري .. والمجنون هو من ينكر هذا كما قال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾.

* * *

٣- ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٠].

أفي الله شك: في وجوده أو في وجوب تفرده بالعبادة .. وقد استدل في الآية بأمرين:

أولهما: بداهة الإقرار بالله وبحقه وإقرار الفطرة بهذا على وجه الضرورة ..

وهذا دليل هام وعظيم سبق تفصيله.

ثانيهما: آثار خلقه: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

فجميع الآيات التي يذكر فيها خلق الله للكون والإنسان والحياة .. كلها دلائل على وجوده وصفاته كما هي أدلة على اليوم الآخر وعلى وجوب تفرده تعالى بالعبادة، واستدلال بحكمته المتضمَّنة فيها على وجود الحكيم سبحانه ووجوب عبادته.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨٠ - ٨١].

وقد أفردنا لهذا فصلاً كاملاً فليراجع[1].

* * *

(١) راجع فصل الخلق والكون.

ثانيًا: اليقين في الرسالة والرسول

وقد تناول القرآن الأمر في مواضع مختلفة منها:

١- ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وهو استدلال بشاهد الرسالات قبله:

أ- **بمعرفة جنس ما دعا إليه الرسل** .. فيجد ما دعا إليه محمد ﷺ هو من نفس هذا الجنس بل وأتى بأعلاه وأجمعه وأصحه وأصفاه حتى أصبح هو الشاهد على صحتها ومؤتمنًا عليها وبيان ما حُرّف منها، فهو المهيمن عليها والشاهد، وهذا من أعلى أنواع الاستدلال، وهذا ما يسميه شيخ الإسلام **بالمسلك النوعي** يعني: معرفة نوع ما دعت إليه الرسل ونوع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دائمًا أبدًا ما تعاقب الليل والنهار.

ب- **إخباره بكثير مما يخفيه أهل الكتاب حتى عن جماهيرهم هم**: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وفي الحديث في إسلام عدي بن حاتم أنه أخبره بأسرار دينه وأنه يخالفها، ولا يعلم هذا أحد، فأقر عدي وأسلم: «روى الإمام أحمد قال: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا محمد بن أبي عدى عن بن عون عن محمد عن ابن حذيفة قال: كنت أحدّث حديثًا عن عدي بن حاتم فقلت: هذا عدى في ناحية الكوفة فلو أتيته فكنت أنا الذي أسمعه منه فأتيته فقلت: إني كنت أحدّث عنك حديثًا فأردت أن أكون أنا الذي أسمعه منك قال: لما بعث الله عز وجل النبي ﷺ فررت منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم قال فكرهت مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت. قال: قلت لآتين هذا الرجل فوالله إن كان صادقًا فلأسمعن منه وإن كان كاذبًا ما هو بضائري. قال: فأتيته واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم عدي بن حاتم قال: أظنه قال ثلاث مرار. قال: فقال لي: «يا عدى بن حاتم أسلم تسلم». قال: قلت إني من أهل دين قال: «يا عدى بن حاتم أسلم تسلم». قال: قلت إني من أهل دين ـ قالها ثلاثًا ـ قال: «أنا أعلم بدينك منك». قال: قلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم. قال: أليس ترأس قومك». قال: قلت بلى. ـ قال: فذكر محمد الركوسية قال كلمة التمسها يقيمها فتركها ـ قال: «فإنه لا يحل في دينك المرباع». قال: فلما قالها تواضعت مني هنية. قال: «وإني قد أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولي وإن الناس علينا إلبًا واحدًا؛هل تعلم مكان الحيرة». قال: قلت قد

سمعت بها ولم آتها. قال: «لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف». ـ قال يزيد بن هارون: جور. وقال يونس عن حماد: جواز. ثم رجع إلى حديث عدي بن حاتم: ـ «حتى تطوف بالكعبة ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح». قال: قلت كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز». قال: قلت كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز ـ ثلاث مرات ـ وليوشكن أن يبتغى من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد». قال: فلقد رأيت ثنتين قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة وكنت في الخيل التي غارت ـ وقال يونس عن حماد أغارت ـ على المدائن وأيم الله لتكونن الثالثة إنه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه»[1].

ويُحدّث عدي ﷺ بعلامات النبوة في أخلاقه وكلامه وأوامره، يقول الترمذي:

«أخبرنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرحمن بن سعد أنبأنا عمرو بن أبي قيس عن سماك بن حرب عن عباد بن حبيش عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي، قال: فقام فلقيته امرأة وصبي معها فقالا: إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما يفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله؟»، قال: قلت: لا، قال ثم تكلم ساعة، ثم قال: «إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئًا أكبر من الله؟»، قال: قلت: لا، قال: «فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال»، قال: قلت: فإني جئت مسلمًا، قال: فرأيت وجهه تبسط فرحًا، قال: ثم أمر بي فأنزلت عند رجل من الأنصار جعلت أغشاه آتيه طرفي النهار، قال: فبينا أنا عنده عشية إذ جاءه قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار، قال: فصلى وقام فحث عليهم، ثم قال: «ولو صاع ولو بنصف صاع ولو بقبضة ولو ببعض قبضة يقي أحدكم وجهه حر جنهم أو النار ولو بتمرة ولو بشق تمرة، فإن أحدكم لاقي الله وقائل له ما أقول لكم: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أجعل لك مالاً وولدًا؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدامه وبعده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئًا يقي به وجهه حر جهنم، ليقِ أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة فإني لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق»، قال: فجعلت أقول في نفسي فأين لصوص طيء.

قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عباد بن حبيش عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ الحديث بطوله.

قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب»[2].

وقد استدل عدي ﷺ بهذا على أنه نبى وليس مَلِكا بتواضعه ﷺللأرملة واليتيم، وطريقة جلسته وهيئته ..كما استدل بفحوى كلامه من وجهين:

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٤، ص ٣٧٧. تعليق شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن من أجل ابن حذيفة وهو أبو عبيدة.

(٢) سنن الترمذي، جـ ٥، ص ٢٠١. قال الشيخ الألباني: حديث حسن.

١- إخباره بأسرار دينه وعلمه به أكثر من عدى نفسه.

٢- فحوى ما دعاه إليه وهى دعوة الرسل قبله ، ولا يدعو دعىّ الى مثل هذا.

* * *

٢- بمعرفة البشارة برسول الله باسمه وصفته ونعته ومكان مولده ونعت مكان مهاجَره وأن هذا زمان إرساله كما في قصة إسلام سلمان الفارسي[١]. وهذا هو المسلك العيني، يعني: معرفة عين رسول

---

(١) ذكر ابن إسحاق رحمه الله إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه فقال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبدالله بن عباس قال حدثني سلمان الفارسي من فيه قال كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جي وكان أبي دهقان قرينه وكنت أحب خلق الله إليه فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يومًا فقال لي يا بني: إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها وأمرني فيها ببعض ما يريد ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري، قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين قالوا بالشام فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله فلما جئت قال أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته قال قلت يا أبة مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال أي بني ليس في ذلك الدين خير دينك ودين آبائك خير منه قال قلت كلا والله إنه لخير من ديننا قال فخافني فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيتي قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم قال فقدم عليهم ركب من الشام فجاؤني النصارى فأخبروني بهم فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني قال فلما أرادوا الرجعة إلا بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام فلما قدمتها قلت من أفضل أهل هذا الدين علما قالوا الأسقف في الكنيسة قال فجئته فقلت له إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك فأصلي معك قال ادخل فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا له شيئا كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه فقلت لهم إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا قال فقالوا لي وما علمك بذلك قال فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه قالوا فدلنا قال فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبدا قال فصلبوه ورجموه بالحجارة وجاؤا برجل آخر فوضعوه مكانه قال سلمان فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا قال فأحببته حبا لم أحب شيئا قبله مثله قال فأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له إني قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصى بي وبم تأمرني به قال أي بني والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره فقال لي أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلانا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصى بي وبم تأمرني قال يا بني والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي فقال أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له يا فلان إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصى بي وبم تأمرني قال يا بني والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه فإن أحببت فائته فانه على أمرنا فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم قال واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة قال ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصي بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصى بي وبم تأمرني قال أي بني والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى الأرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل قال ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه قالوا نعم فأعطيتهموها وحملوني =

الله وصفاته المبشَّر بها، ويشير شيخ الإسلام في أكثر من موطن في "مجموع الفتاوى" أن هذا من حكمة إبقاء أهل الكتاب وإقرارهم بالجزية .. وليراجع هذا.

وفي هذا جاءت الآية: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وأصرح منها: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٠ - ٢١].

وقد قال بعض من أسلم من اليهود وشهد له رسول الله بالجنة (عبد الله بن سلام): «قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني، فقال له عمر: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي؛ فأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبَّل عمر رأسه»(١).

* * *

= معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبدا فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها فأقمت بها وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيد جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يا فلان قاتل الله بني قيلة والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي قال سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول ماذا تقول قال فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال ما لك ولهذا أقبل على عملك قال فقلت لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال قال وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم قال فقربته إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده فلم يأكل فقلت في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته فقلت له إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه قال فقلت في نفسي هاتان ثنتان قال ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تحول فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذاك أصحابه ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه= = وسلم بدر وأحد قال سلمان ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وأربعين أوقية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أعينوا أخاكم فأعانوني في النخل الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين ودية والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشرة يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي قال ففقرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب إليه الودي ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة فأديت النخل وبقي على المال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال ما فعل الفارسي المكاتب قال فدعيت له قال خذ هذه فادها مما عليك يا سلمان قال قلت وأين تقع هذه مما علي يا رسول الله قال خذها فإن الله سيؤدي بها عنك قال فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم وعتق سلمان فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرا ثم لم يفتني معه مشهد.

(١) تفسير النسفي، جـ ١، ص ٧٨.

obeikandl.com

٣- استدلال بمعرفتهم بسابق عهده معهم، وذلك الاستدلال من وجهين:

أ- كونه أميًا لا يقرأ، ولم يختلط بأحد يعلمه هذا بل ولا أحد غيره يعلم هذا فقد جاء بما لا يعرفه أهل الكتاب من المواريث وغيرها، وبالمائدة ولا يعرفها أهل الكتاب في دينهم، مع إخباره بما أخفوه.

ب- كونه أمينًا صدوقًا مع الخلْق؛ فكيف يكذب على الله؟.

وهذا الاستدلال بوجهيه هذين تضمنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

* * *

٤- مطابقة قوله لعملِه وشيَمه وصفاتِه بحيث صار واقعُه ﷺ آية لمن ينظر إليه، ويستدل به على نبوته، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٣].

يقول الحافظ ابن كثير: «أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُؤَدة والسمت الحسن والخلق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنُهَى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار»(١).

* * *

٥- استدلال بانتصاره وعلو كلمته وتأييد الله له:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤]، فأخبر تعالى أن من شأنه تعالى وعادته في خلقه أنه يمحو الباطل وهو المفتري عليه كذبًا، وأنه يحق الحق بكلماته ومعنى إحقاق الحق هو نصره وتأييده كما قال في الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧ - ٨]، وقد كان .. وحكمت أمته الدنيا أكثر من عشرة قرون حتى تركوا دينه وتخلوا عنه فذابوا وضعفوا وذلوا .. ولو عادوا لعاد لهم وعد الله تعالى.

* * *

٦- استدلال ببداهة ما دعا إليه محمد ﷺ والمعرفة الضرورية بالفطرة لما أرسل به:

ولهذا كان القرآن يسأل المشركين هذه الأسئلة: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

وهذا لبداهة ما يدعوا إليه وهو التوجه للخالق الرازق المالك ومن له المرجع والمآب، ودعوة محمد ﷺ هي لإتمام هذا الأمر، وبلا أجر إلا أنه يبلغ، وحاله معروف من الصدق والأمانة مع الخلق؛ فمع الخالق أولى، ودعوته ليست مطاوِعة لهوى أحد بل مصادمة للهوى، مقيدة بالتعبد للخالق وحده، وهو أول من يعمل ما يأمر به وينتهي عما ينهي عنه، وهو لا يفرح بالدنيا، بل كان أزهد الناس فيها ولم يتوسع في مباحاتها بل كان يأخذ بالكفاف ويسأل الله تعالى أن يجعل رزق آل محمد قوتًا .. ولا يبطر عند النصر

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٥٥٠.

ولا ييأس عند المواجع والقرْح، وهو يعترف ببشريته ويرفض الخلط بينها وبين الألوهية وخصائصها، ويرفض أن يرفعه أحد فوق ما جعله الله فيه من المكانة (عبد رسول)، ويخبر أنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ استثناء منقطع، يعني: (إلا) بمعنى (ولكن).

وهو يخبر بالخبر في المستقبل .. القريب في يومه أو عصره وزمنه أو بعد ذلك بعقود أو بقرون فيقع على وفق ما أخبر:

١- كإخباره بانتصار الروم على الفرس.

٢- وبأمر الخوارج.

٣- وبالخلافة الراشدة ثم الملك العضود ثم الجبري.

٤- وإخباره باستشهاد عمر ﷺ.

٥- وإخباره بالفتن واستشهاد عثمان ﷺ.

٦- وبالكاسيات العاريات كانحراف اجتماعى، وبرجال في أيديهم أسواط كأذناب البقر، كانحراف سياسي.

٧- وإخباره بالانحراف السياسى والخلل فى الحكم والقضاء وبعض القراء والعلماء.

٨- وإخباره بالفتوحات وإنفاق الكنزين الأحمر والأبيض لكسرى ولهرقل في سبيل الله .

٩- وبخروج نار من قعر عدن تضيء لها أعناق الابل ببصرى وقد حدث ورواها من شاهدها فى التواريخ.

١٠- وإخباره بطول عمْر سعد بن أبى وقاص وأنس بن مالك.

١١- وإخباره بفتح القسطنطينية (استانبول حاليًا) وقد فتحت على يد محمد الفاتح السلطان العثمانى رحمه الله ، وأخبر أنها تُفتح أولا قبل رومية ، وسُتفتح رومية كما أخبر أصدق الخلق ﷺ.

وغير هذا كثير كثير يراجع فى مظانه فهذا المحل محل أمثلة وليس محل إحصاء وليراجع الكتب التى عنيت بهذا الحصر[1].

ومع هذا يخبر الخلق أنه لا يعلم الغيب وإنما يعلم ما أخبره الله به، وأما ما لم يخبره ربه به وما زُوى عنه فلا يعلمه بل ولا يسأل علمه كما قال تعالى عن الساعة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فنفى عنه الإلحاح في السؤال عنها يعني: وقتها، وقد أخبر اليهود والنصارى بأسرار دينهم وما خالفوا دينهم فيه، ودعاهم إلى أصل الدين الصحيح الذي انحرفوا عنه، وقد شهدوا له بذلك، ثم تحدى العرب بالكتاب المنزل سواء في أسلوبه أو مضمونه من العلوم والأخبار الماضية والمستقبلة، ومن سمو التشريع الذي لا يعرفه اليهود ولا النصارى كتشريعات المواريث وغيرها، وأمره بمجامع مكارم الأخلاق حتى اعترف بهذا أبو جهل نفسه حين نزل قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] .. وتحداهم أن يأتوا

(١) كتاب الدلائل لابن كثير ودلائل النبوة للبيهقى وغيرها كثير.

بمثله فلم يأتوا لا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة، ثم تحداهم وهو مستضعَف في مكة بأنه إن كان يكذب على الله تعالى فإن الله تعالى لا يدع أحدًا يكذب عليه ولا يقصمه، بل الكاذب والمبطل سيُمحق هو وكذبه وافتراؤه ولن يؤيده الله تعالى، وتحداهم بمثل هذه الآيات: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨]، يعني لا يؤيده بالحجة والبرهان وبالنصر وعلو الكلمة.

وبهذه الآية: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج: ١٥ - ١٦].

قال ابن عباس: «من كان يظن أن لن ينصر اللهُ محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أي: بحبل ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي: سماء بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ يقول: ثم ليختنق به»[1].يعني فليختنق وليمت فإن الله تعالى ناصر محمدا ودينه وإن كره هذا المبغض .

وبهذه الآية: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥].

وبهذه الآية: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]:

يقول ابن كثير في سيرته: «قال ابن إسحاق: ومر رسول الله ﷺ فيما بلغنا بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل ابن هشام فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى في ذلك من أمرهم: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

قلت[2]: وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾.

قال سفيان: عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن عباس قال: المستهزءون (الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب أبو زمعة والحارث بن عطيل والعاص بن وائل السهمي).

فأتاه جبريل فشكاهم إليه رسول الله ﷺ فأراه الوليد فأشار جبريل إلى أنمله وقال: كُفِيته.

ثم أراه الأسود بن المطلب فأومأ إلى عنقه وقال: كُفِيته.

ثم أراه الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى رأسه وقال: كُفِيته.

ثم أراه الحارث بن عطيل فأومأ إلى بطنه وقال: كُفِيته.

ومر به العاص بن وائل فأومأ إلى أخمصه وقال: كُفِيته.

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له فأصاب أنمله فقطعها.

وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٢٨٣.

(٢) الكلام للحافظ ابن كثير.

وأما الأسود بن المطلب فعمى وكان سبب ذلك أنه نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني! قد قتلت فجعلا يقولون: ما نرى شيئًا وجعل يقول: يا بني ألا تمنعون عني قد هلكت هاهو ذا الطعن بالشوك في عيني فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.

وأما الحارث بن عطيل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منها.

وأما العاص بن وائل فبينما هو كذلك يومًا إذ دخل في رأسه شبرقة حتى امتلأت منها فمات منها.

وقال غيره في هذا الحديث: فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شبرقة يعني: شوكة فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته. رواه البيهقي بنحو من هذا السياق»[1].

وكل هذا وقع كما أخبر .. وقد ترك لهم المستقبل ينظرون فيه كدليل على صحة الرسالة ونزل هذا التحدي في مكة، ليترقبوا هزيمة واضمحلال أمر المبطل منه أو منهم ـ حاشاه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥ - ٦].

وانتصر أمره وعلا شأنه واهتدى الخلق بدعوته، واهتدى من أهل الكتاب من كتب الله تعالى له السعادة، وبقي أصحاب الحقد مقموعين ونزل فيهم هذا الوعد: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٥]، ونزل في نفس السورة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وهكذا كانوا أكثر من عشرة قرون، حتى تنكر المسلمون لدينهم وللقرآن ونبذه فريق منهم ونُحي من حياتهم وإعلامهم وتعليمهم وحُكْمهم ففشلوا وذلوا وهانوا مصداقًا لوعده على لسان محمد ﷺ وأنه تعالى لا يحابي أحدًا: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، فحال السوء اليوم مصداق لما أخبر به محمد ﷺ، ولو عادوا لعاد لهم الوعد بالتمكين والعز: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٥ - ٥٧]، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾، ثم ذكر شرط هذا فقال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

وكل هذه وعود الله تعالى على لسان محمد ﷺ.

كل هذا بديهة فلماذا الشك أو الامتراء ..؟!.

فبعدًا لقوم لا يؤمنون.

* * *

(١) سيرة ابن كثير، جـ ٢، ص ٨٣.

ثالثًا: اليقين في اليوم الآخر

وقد مر الاستدلال بآيات الكون على اليوم الآخر ومآخذه في فصل (الكون والخلق) ونعيد هنا هذا المقطع لأهميته هنا: «وهذا الاستدلال جاء بعدة طرق في كتاب الله تعالى:

الطريقة الأولى: الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة على إمكان إعادته ..

فلماذا يشك في الإعادة؟ فليشك إذن في وجوده!.

فإذا كان وجوده مسبوقًا بعدم، فعلى البداهة فالوجود المسبوق بوجود سابق أَوْلى وأيسر وأهون .. هذا في عرفنا لكن المقدورات لله تعالى نسبتها واحدة ولهذا عندما يورد الله تعالى هذا السؤال من منكري البعث تأتي الإجابة هكذا بكل بدهية ووضوح:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾، فجاءت الإجابة: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ ﴾، فجاءت الإجابة هكذا: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

والنسبة لله تعالى واحدة في شأن بداءة الخلق أو إعادته، ولهذا قال المفسرون في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ قالوا: في عرفكم وفي قياسكم.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فهما نشأتان: «فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ»(١).

ويقول البغوي: «﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ﴾، فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا»(٢).

* * *

(١) تفسير النسفي، جـ ٣، ص ٢٥٥.
(٢) تفسير البغوي، جـ ١، ص ٢٣٧.

الطريقة الثانية: الاستدلال بانزال الله الماء من السماء وإحياء الأرض به بالنبات وأن هذه عملية إحياء من الموت وعملية إعادة للحياة مستمرة دائمًا ومماثلة لما وعدتم به من البعث .. وهي أمام أعينكم كل لحظة فلم لا تعتبرون؟! ولم إذا تتعجبون من البعث؟!.

ولهذا يكرر عرض إحياء الأرض بالنبات بالماء النازل من السماء في كتاب الله تعالى ثم تعقب هكذا: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

وانظر إلى الآيات: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

* * *

الطريقة الثالثة: الاستدلال بخلق ما هو أَوْلَى وأعظم خلقًا من الإنسان ـ الذي يستعظمون بعثه ـ وهو خلق السماوات والأرض :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧].

وبالتالي ينص القرآن وينبه على أن الله خلق ما هو أعظم من الإنسان ولم يعي ولم يتعب ولم يكترث بخلقهما .. أفلا يقدر على خلق ما هو أقل منهما؟!.

ولذلك بعدما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٨ - ٥٩]، فواضح أنها سيقت للاستدلال على الساعة.

وبعدما قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾، فصّل سبحانه خلقه للسماوات والأرض فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، ثم قال تعالى بعدها: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾، ثم أخبر تعالى بشناعة إنكار الظالمين للقائه بعد هذا الدليل الواضح، فقال: ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

* * *

الطريقة الرابعة: الاستدلال بالحكمة.

وذلك أن القول بعدم البعث هو قول بأن الله تعالى خلق الحياة عبثًا وسدىً وهباءً.

وهذا لا يليق برب العالمين .. هذه واحدة.

والثانية: أن الحكمة ملحوظة في كل جزء من الكون وفي كل ثناياه ـ فالعين في محلها بما يحفظها من أهداب ومحاجر وحاجبين .. والرِجْل لوظيفتها .. واليد والأصابع .. والخلايا وأنواعها .. والتوازن في الخلق في كل عالم من الحيوان والطير والديدان والحشرات والوحوش .. وبين العوالم وبعضها وبين السماء والأرض ..

وفي هذا الجانب كتبت أسفار تراجع خاصة في علم الأحياء والكيمياء وغيرها ..

فإن كانت الحكمة هكذا مبثوثة ومنطوية في كل ذرة وفي كل منعطف في هذه الحياة وفي الكون العريض وآفاقه .. فكيف يكون الوضع الكلي للحياة عبثًا بلا حكمة؟!.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وكيف يكون الغرض العام من الحياة والكون والخلق كله عبثًا بلا هدف؟.

وفي عالم البشر كم من ظالم مات ظالمًا لم يقتص منه، وكم من مظلوم مات بدمعه كمدًا لم ينتصف له فإن كانا يستويان فيلزم من هذا أن الظالم كالمظلوم، ومن كف عن الظلم سيستوي مع من أغرق فيه، ومن عف عن المحارم كمن انتهكها فيلزم من هذا أن الحياة عبث وسدى وبلا حكمة .. بل يلزم منها الإلحاد في وجود الله تعالى وإنكاره ..

هذا ما عده القرآن سبة لله تعالى، ونزه تعالى نفسه وقدسها عن هذا العبث وتعالى عن هذا الظن.

وانظر إلى هذه الآيات:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾، ثم نزه تعالى نفسه عن هذا فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦]، فتعالى ربنا عن هذا العبث وتنزه عنه.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

فهو ظن سيء برب العالمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، ثم أعقبت بتقرير الساعة: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾:

«إلا ملتبسًا بالحق مراعيًا فيه مقتضى الحكمة البالغة»(١).

«إلا خلقا ملتبسًا بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض»(٢).

«إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة أو البعث»(٣).

«إلا خلقًا ملتبسًا بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمَعْدلة وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للمجازاة على ما قررناه مرارا»(٤).

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣]، والسورة كلها في إنكار المشركين للبعث، والرد عليهم وتقريره.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٦ - ٨].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١]، فهذا نص على أن خلقه لهما لهذا القصد، وهكذا ..

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٨٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٨٠.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٦٣.
(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧٦.

الطريقة الخامسة: تعداد ما خلقه الله تعالى في هذه الحياة على أنه نِعَم، وأن هذه النعم تستوجب الشكر، ثم هناك من يشكر ومن لا يشكر فكيف يستويان ..الشاكر والجاحد؟.

فلا بد أن يكون للمُنعِم جزاؤه لكل منهما .

وطالما هناك من أنعم وطالب بشكر هذه النعم فلابد من أنه يملك الجزاء على الوفاء وعلى عدمه. فعلى من يلحظ وجه النعمة أن يلحظ جانب الواجب المترتب عليها، وهذا الواجب لا تستقيم المطالبة به إلا بيوم يحاسب كلٌ على قيامه بالشكر أو عدم ذلك ..

يقول البيضاوي: «﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ المرجع فيسألكم من شكر ما أنعم عليكم»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، يقول البيضاوي: «الذي ألهاكم، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله: ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ ﴾، وقيل: يعمّان[(٢)] إذ كلٌ يُسأل عن شكره، وقيل الآية مخصوصة بالكفار»[(٣)].

* * *

الطريقة السادسة: الاستدلال بعموم القدرة المستدَل عليه من النظر في خلقه تعالى وقدرته الباهرة في خلقه ..

فيذكر طلاقة قدرته التي لا تتوقف على شيء إلا مجرد إرادته تعالى ولهذا يشير إلى هذا مع الطرق الأخرى.

وهذا واضح في آخر سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾، فرد عليه:

١- بدليل بداية الخلق: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

٢- ثم أعقبه بإيراد خلقه تعالى ما هو أولى وأعظم: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

٣- ثم نص على عموم قدرته: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٢].

وكذلك في سورة النحل:

فقد حكى الله تعالى عن المشركين أنهم أقسموا أن لا بعث فقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾. وكانت الإجابة:

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٦٤.
(٢) أي المؤمن والكافر.
(٣) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٥٢٤.

أولاً: بإثبات الحقيقة ولو أنكروها وأنها من موعود الله تعالى الذي لا محالة من تحققه ولا التفات إلى أقوالهم التي تلقى على عواهنها بلا دليل، بل ظنٌ وتخرصٌ ومكابرةٌ، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨].

ثانيًا: الاستدلال على البعث بدليل الحكمة التي ذكر تعالى بعض أوجهها وبعض أغراضها فقال تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]، فنص تعالى على بيان الحق في اختلافهم سواء في شأن البعث أو التوحيد والشرك أو النبوة والرسالة أو افترائهم في التشريع بل في جميع ما اختلفوا فيه.

ثالثًا: استدل تعالى بعموم القدرة فقال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

* * *

الطريقة السابعة: الاستدلال بعموم العلم المستدَل عليه أيضا بهذا الخلق.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، ثم أورد تعالى إنكارهم للبعث ورد عليهم بعموم علمه تعالى، ودليله ما يشاهدونه من الخلق واستقامته، فلو كان في علمه تعالى نقص ما ـ سبحانه ـ لما استقامت السماوات والأرض فلا وجه لما يستبعدونه من العلم باختلاط التراب المتحلل من الأجساد بتراب الأرض: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ: ١ - ٣].

* * *

رابعًا: اليقين العملي

والمقصود به الاستقامة على الأوامر ورسوخ معاني الإيمان في القلب بحيث لا يضطرب ولا يهتز عما وطن نفسه عليه وأقامها عليه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وهذا علاج للمتزعزع المضطرب أن يُرسخ نفسه على هذا ويُثبتها ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعنى صادرا من نفوسهم ..

وقد جاءت الآية تعليقًا على اضطراب الأعراب وتزعزعهم عن الجهاد مع ادعائهم الإيمان فنزلت الآية لتوضيح الإيمان (الواجب) وهو الإيمان الذي ينفي الريبة.

يقول شيخ الإسلام: «والريبة تقع في العلم وفي العمل بخلاف الشك فلا يقع إلا في العلوم والأخبار فقط».

والمقصود أن العبد الذي يعمل حينًا بالأمر الشرعي وحينًا آخر يتزعزع فهذا عنده من الريبة في العمل بقدرها، هذه الريبة تعني عدم رسوخ العمل في القلب، وهى خلل في الإيمان الواجب (وليس في أصل الإيمان) وهذا ما كان عند الأعراب المذكورين في آخر سورة الحجرات على الراجح من قولي المفسرين.

وعلى العبد أن يبحث عن الرسوخ واليقين العلمي بالنظر في الأدلة كما سبق وفي غير ما ذكرنا، وعليه أن يبحث أيضًا عن اليقين والتثبيت العملي.

أما التثبيت العملي فبابه العمل بما يوعظ به العبد ويُذكّر به .. فإذا ائتمر اعتاد هذا حتى رسخ فيه، وقد وعد الله تعالى بالتثبيت والزيادة وإعانة العبد على هذا، فقد مدح تعالى من يطلب تثبيت نفسه وألحّ في هذا علمًا وعملاً حتى صارت نفسه تطلب هذا التثبيت بالعمل فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فطلبهم التثبيت صادر من نفوسهم .

وتكفل الله بهذه المعونة فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، فوعد تعالى من عمل بما وُعِظ به أن يزيده تثبيتا على هذا الدين.

ووعد الله تعالى من استقام على أمره بالإيمان بالتثبيت في أحرج المواقف وأضعفها، في الدنيا عند مواقف الفتن، وعند الموت واضطراب العبد وضعفه لحظتها، وعند أضعف اللحظات عند سؤاله عن حاله ومعتقده في قبره فقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفسر رسول الله ﷺ تثبيت الآخرة بأنه السؤال في القبر.

* * *

هذا أمر .. والأمر الآخر هو ما تضمنته هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣١].

يقول البيضاوي:«فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن أو عند الموت أو الخروج من القبر ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم»[1]، واختار ابن كثير أنها تشمل كل هذه المواقف لا أحدها على الخصوص.

فللملائكة تنزلها بأوامر الله تعالى .. فهناك ملائكة للجبال وأخرى للبحار وأخرى للريح وأخرى للسحاب وللمطر حتى روى أنه لا تنزل قطرة إلا ومعها ملك يضعها حيث أمره الله تعالى وهناك ملائكة للجنين في الرحم وهناك الموكل بغير هذا من الأمور وما يعلم جنود ربك إلا هو ..

ولكن كما أن هناك ملائكة موكلة بهذه الأرزاق التي هي قوت الأبدان **فهناك ملائكة موكلة بقوت القلوب والأرواح من:**

١- **العلوم والفهوم والتصديق بالخير** .. يعني: الشق العلمي الخبري لزيادته .. زيادة التصديق واليقين العلمي (كأنك تراه).

٢- **وتتنزل كذلك بإرادات الخير والتوجه الصادق لله تعالى.**

وهناك في الشق المقابل من الشياطين ما يلزم القلب بـ:

١- التكذيب بالحق والتشكيك فيه وزعزعة اليقين وإلقاء سعير الاضطراب في النفس.

٢- إرادات الشر وتحبيبها للنفس، والتوجه بالقلب نحو الانحراف عن مقتضى الطاعة.

فمبدأ الخير من التصديق والعمل: لمّة الملك.

كما أن مبدأ الشر من التكذيب والمخالفة: لمّة الشيطان.

وفي هذا جاء الحديث: عن عطاء عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة وللملَك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق؛فمن وجد من ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد من الآخر فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾»[2]. ويروى موقوفًا من كلام عبد الله بن مسعود.

فلزوم الشياطين للقلب إنما تكون بمعصيته أو اعتيادها بتحبيب المخالفة حتى أن بعض العلماء قال: أن للعاصي نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[3]، فبحسب معصية العبد يكون هناك من الإيحاء له كما في الآية، أو اللمة كما جاء في الحديث.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١١٤.
(٢) سنن النسائي الكبرى، جـ ٦، ص ٣٠٥
(٣) يراجع كتاب شيخ الإسلام: الفتاوى.

وتنُزُل الملائكة على القلب كما في الآية أو لمة الملك ولزومها وتتابعها على القلب حتى يزداد اليقين ويزداد الرسوخ في العمل كما جاء في الحديث .. هذا لا يكون إلا بالطاعة والذكر والتمسك بها ولزوم الاستقامة بقدر الجهد ؛فالله تعالى لا يترك العبد وحده بل يعينه.

فالطريق إلى هذا لزوم التعبد والذكر .. فإننا كما أُمرنا بالتفكر أُمرنا بالتذكر، وكلاهما باب لليقين العلمي والعملي قال الحسن البصري: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر[١] ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار فنطقت بالحكمة وأورثت العلم»[٢].

فمن أراد تنزل الملائكة على قلبه والسعادة بلمة المَلَك ودوامها والسعادة باليقين الذي يباشر القلب حتى يكون كما قال سهل بن عبد الله: (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا)[٣]، من أراد هذا، فالباب هو التعبد والتذكر وملازمة الطاعة إثر الطاعة والتقلب بين الطاعات والمران على إسقاط الحظوظ والعمل على وجه التعبد والقيام بحق الخدمة للرب تعالى حسب ما أُمرنا في كل حال.

وكان المتكلمون الذين أعرضوا عن طريقة القرآن في الاستدلال والفهم واليقين وعمدوا إلى ترّهات الفلاسفة والمناطقة .. كانوا لا ينعمون أبدًا باليقين رغم ما زعموه، وكانوا أكثر الناس شكًا في حياتهم وانقلابًا عند موتهم مع ما يشتم من كلام كثير منهم من رائحة الزندقة والنفاق .. فكانوا في هذا الجحيم النفسي، بينما كان أهل السنة والقرآن والتعبد أسعد منهم بالهدى وعلومه واليقين فيه بالتزامهم ما جاءت به الرسالة.

ولهذا عُرف أهل السنة باليقين وسعادتهم به، وعُرف هؤلاء المتكلمون بالشك والاضطراب.

ولهذا قال أحد العباد من أهل السنة: (أنا عندي علم اليقين) فجاءه اثنان من كبار المتكلمين أحدهما الرازي .. فسألاه عن قوله فأجاب: نعم عندي علم اليقين. قالوا: وما اليقين عندك؟ قال: اليقين عندنا واردات ترد على النفوس فلا تستطيع النفوس ردها فأخذا يكرران الكلمة: واردات ترد على النفوس فلا تستطيع النفوس ردها، **وكان يقصد بهذه الواردات هي ما يحصل للعبد من اليقين بسبب التعبد مع استعمال مأخذ القرآن من علوم الفطرة الضرورية التي لا تستطيع النفوس أن تردها وهى طريقة الأنبياء،** والإعراض عن الطرق المخالفة لطريقة الأنبياء من مناهج الفلاسفة الوثنيين والصابئة وغيرهم ..

ثم قالا: كيف الطريق إلى هذا؟ فقال: تتركان علم الكلام هذا وتدخلان هنا تتعبدان لله تعالى، فاعتذر أحدهما أنه في شغل عن هذا، وقال الآخر: إني تعبت سأدخل معك، فدخل وتعبد وبعد مدة قال والله ما وجدت الخير إلا عند هؤلاء.

* * *

وننقل عن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بيان هذه الجملة التى أوردناها من كلامه النفيس، يقول رحمه الله: «والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده ويعمل له كان خاسرًا بترك تصديق الحق وطلب الخير، فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة

---

(١) يعنى بالعلم على العمل وبالعمل على العلم، ومن عمل بما علم وفقه الله إلى علم ما لم يكن يعلم. راجع كتاب حد الإسلام.
(٢) الفتاوى الكبرى، جـ٥، ص ١٩٦ - ٢٠٠.
(٣) حلية الأولياء.

الخير؟ فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر؟ فذكر عبد الله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من المَلَك ولمة من الشيطان، فلمة المَلَك تصديق بالحق وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده أما مع رجائه إن كان مع هوى نفس وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر.

فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة المَلَك ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي: يخوفكم أولياءه، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾».

ويقول: «ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكر والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيده العلم بالمدلول عليه، **ومتى كان العلم مستفادًا بالنظر فلابد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر فيكون ذلك المعلوم أصلاً وسببًا للتفكر الذي يطلب به معلوما آخر ولهذا كان الذكر متعلقًا بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكر في مخلوقاته** كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وقد جاء الأثر: «تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق»، لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات.

وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد، وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه».

ويقول: «فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حَسَن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك، وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرون بالتفكر والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق.

والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم فكل من الطريقين فيها حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون وقد بسطنا الكلام في هذا غير هذا الموضع وبينا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر وطريق أهل النظر والاستدلال وما في كل منهما من مقبول ومردود وبينا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق وليس هذا موضع بسط ذلك.

وإنما المقصود هنا أن الإنسان محس بأنه عالم، يجد ذلك ويعرفه بغير واسطة أحد كما يحس بغير ذلك.

وحصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم فالجسم يحس بالطعام والشراب **وكذلك القلوب تحس بما يتنزل إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها** كما قال النبي ﷺ: «إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن»، وكما قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ

﴿ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، وكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»، فضرب مثل الهدى والعلم الذي ينزل على القلوب بالماء الذي ينزل على الأرض.

وكما أن لله ملائكة موكلة بالسحاب والمطر فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم هذا رزق القلوب وقوتها وهذا رزق الأجساد وقوتها».

ويقول: «وإذا كان علم الإنسان بكونه عالمًا مرجعه إلى وجود ذلك وإحساسه في نفسه بذلك وهذا أمر موجود بالضرورة لم يكن لهم أن يخبروا عما في نفوس الناس بأنه ليس بعلم بغير حجة فإن عدم وجودهم من نفوسهم ذلك لا يقتضي أن الناس لم يجدوا ذلك لا سيما إذا كان المخبرون يخبرون عن اليقين الذي في أنفسهم عمن لا يشكون في علمه وصدقه ومعرفته بما يقول.

وهذا حال أئمة المسلمين وسلف الأمة وحملة الحجة فإنهم يخبرون بما عندهم من اليقين والطمأنينة والعلم الضروري كما في الحكاية المحفوظة عن نجم الدين الكبرى لما دخل عليه متكلمان أحدهما أبو عبد الله الرازي والآخر من متكلمي المعتزلة وقالا: يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين. فقال: نعم، أنا أعلم علم اليقين. فقالا: كيف يمكن ذلك؟ ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلاً، وأظن الحكاية في تثبيت الإسلام. فقال: ما أدري ما تقولان ولكن أنا أعلم علم اليقين. فقالا: صِف لنا علم اليقين. فقال: علم اليقين عندنا واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها. فجعلا يقولان: واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ويستحسنان هذا الجواب.

وذلك لأن طريق أهل الكلام تقسيم العلوم إلى ضروري وكسبي أو بديهي ونظري فالنظري الكسبي لابد أن يرد إلى مقدمات ضرورية أو بديهية فتلك لا تحتاج إلى دليل وإلا لزم الدور أو التسلسل، والعلم الضروري هو الذي يلزم نفس المخلوق لزومًا لا يمكنه الانفكاك عنه، فالمرجع في كونه ضروريًا إلى أنه يعجز عن دفعه عن نفسه، **فأخبر الشيخ أن علومهم ضرورية وأنها ترد على النفوس على وجه تعجز عن دفعه.** فقالا له: ما الطريق إلى ذلك. فقال: تتركان ما أنتما فيه وتسلكان ما أمركما الله به من الذكر والعبادة. فقال الرازي: أنا مشغول عن هذا. وقال المعتزلي: أنا قد احترق قلبي بالشبهات وأحب هذه الواردات فلزم الشيخ مدة ثم خرج من محل عبادته وهو يقول: والله يا سيدي ما الحق إلا فيما يقوله هؤلاء المشبهة، يعني: المثبتين للصفات فإن المعتزلة يسمون الصفاتية مشبهة»[1].

ويقول أيضًا: «وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة كما في الصحيحين عن النبي أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٤، ص ٣٢ - ٤٥. باختصار.

في أمتي أحد فعمر»، وكان عمر يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تجلى لهم أمور صادقة. وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾». وقال بعض الصحابة: أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفي رواية فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به.

وكانوا يقولون: إن السكينة تنطق على لسان عمر ﷺ وقال: من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكًا يسدده. وقال الله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ نور الإيمان مع نور القرآن. وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾، وهو المؤمن على بينة من ربه ويتبعه شاهد من الله وهو القرآن شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان.

وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم فقيل لهم: أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله تحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر كما قال الشيخ الملقب بالكبيرى للرازي ورفيقه وقد قالا له: يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين. فقال: نعم. فقالا: كيف تعلم؟ ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئًا أفسدته وكلما ذكرت شيئًا أفسده. فقال: هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام وطلب أحدهما أن تحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة».

ويقول: «فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري، والنظري مستند إلى الضروري، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزومًا لا يمكنه معه الانفكاك عنه، هذا حد القاضي أبي بكر بن الطيب وغيره، فخاصته أنه يلزم النفس لزومًا لا يمكن مع ذلك دفعه. فقال لهم علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس، وهو علم يلزم النفس لزومًا لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه، وقال: واردات لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به، فالواردات تحصل بهذا وهذا وهذا».

* * *

ويقول: «والوحي وحيان وحي من الرحمن ووحي من الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾، وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما: إنه يقول أنه يوحى إليه. فقال: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾، وقيل للآخر: أنه يقول أنه ينزل عليه. فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ١٣، ص ٦٧ - ٧٥.

ويقول ـ رحمه الله ـ فيما يحصل به اليقين، وأنه بثلاثة أشياء: «أحدها: تدبّر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يُحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق ـ يعني: القرآن.

والثالث: العمل بموجب العلم، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، والضمير عائد على القرآن يعني: قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

ثم قال: فبيّن سبحانه أنه يُري الآيات المشهودة ليبيّن صِدق الآيات المسموعة مع أن شهادته بالآيات المسموعة كافية.

ثم قال: وأما الآيات المشهودة فإنه ما يُشْهَد ويُعلَم بالتواتر من عقوبات مكذّبي الرسل ومَن عصاهم، ومِن نَصْرِ الرُّسل وأتباعهم على الوجه الذي وَقَع، وما عُلم مِن إكرام الله تعالى لأهل طاعته، وجَعْل العاقبة لهم، وانتقامه من أهل معصيته، وجَعْل الدائرة عليهم .. فيه عبرة تُبين أمره ونهيه وَوَعْدَه ووعيده، وغير ذلك مما يوافق القرآن»[1].

وإنا نسأله تعالى إيماناً يباشر قلوبنا ويقيناً

حتى نعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وما أصابنا لم يكن ليخطئنا .

* * *

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٣، ٣٣١ - ٣٣٢.

الجَزوع عند المصائب

وهو داء قد يجعل الإنسان يقف عن عمله وطريقه، وتستبد به المخاوف والقلق ..

وهذا داء عالجه القرآن؛ فمن رام علاجه في نفسه فليتداوى بهذا الكتاب العظيم.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]،

فقد أخبر سبحانه أن ما يقع قد كتبه وقدره قبل خلق الخلائق بخمسين ألف سنة وفي هذا ورد الحديث: «قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة وابن لهيعة قالا: حدثنا أبو هانئ الخولاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، ورواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن زيد وثلاثتهم عن أبي هانئ به، وزاد ابن وهب: «وكان عرشه على الماء»، ورواه الترمذي وقال حسن صحيح»[1].

فهو أمر لا سبيل إلى دفعه.

* * *

وكذلك يعلم حقيقة أخرى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٨]، فليس لأحد الخروج عن قبضة الله وعما قدره، وهذا ضروري، لأنه لما تيأس النفس من أن ما حدث كان يمكن ألا يحدث لو أنه فعل كذا، لخف الألم كثيرًا .. فكثيرًا ما يكون الألم لشعور الإنسان أنه كان يمكن تفادي هذا بتغيير تصرف ما[2] فإذا علم أن الأمر قضاء لا يرد وعلم أن ربه (حكيم حميد) فما من قدر يحدث إلا ولله تعالى فيه حكمة .. بل حكمة بالغة .. بل حكمة يحمد عليها .. ولا يحيط أحد بمرامي حكمة الله تعالى .. لكن عليه أن يثق بهذا المعنى ويحمد ربه .. فلما يتكشف له بعض أطراف حكمته تعالى في الأخذ والعطاء والمنع والخفض والرفع لن يجد غير الحمد تعبيرًا عن هذه الحكمة .. ولهذا خَتَمت سورة الزمر مشاهد الآخرة والفصل بين الخلق بقوله تعالى تعقيبًا على دخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار إلى النار قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥].

يقول ابن كثير: «أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٤٠٢.

(٢) هذا الاحتجاج لا يصح إلا في المصائب فقط، أما المعايب والذنوب فيستغفر منها العبد ولا يحتج فيها بالقدر بل يرجع العبد عند الذنوب باللوم على نفسه (أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي) ولا حجة لأحد عصى الله تعالى. ولهذا لما لام موسى آدم على مصيبة الخروج من الجنة قال: (لم أخرجتنا ونفسك من الجنة)، فاحتج آدم عليه السلام بالقدر على هذه المصيبة بأنها مكتوبة قبل أن يُخلق بخمسين ألف سنة، ولم يلم موسى آدم على المعصية لأنه تاب منها وموسى أعلم بالله تعالى من أن يلوم عبدًا قد تاب فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر على المعصية بل على المصيبة، وهذا صحيح ولهذا حَجَه (يعني غلبه بالحجة).

الخلق بالحمد في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾»[1]، ونفس المعنى ذكره ابن القيم رحمه الله مرارًا في كتبه.

* * *

وإذا علم العبد أنه مأجور على أي شيء يصيبه .. حتى الشوكة يشاكها كما في الحديث.

وإذا علم أن ما أصابه هو بسبب ذنوبه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعلم أن الذنب داء مهلك وأنه قد يهلكه ويرديه في النار وأن ربه تعالى يرحمه بهذا فيخلصه من ذنبه.

وإذا علم أنه يكون للعبد من الدرجات في الجنة ما لا يصل إليه بعمله، والله تعالى قد كتب له هذه الدرجة فقدر تعالى له من المصائب ما يبلغ بصبره عليها ما لا يبلغه بعمله الذي لو خُلي بينه وبينه لما بلغ هذا العلا، وراجع هذا المعنى فيما أورده ابن القيم رحمه الله عن مصاب الصحابة في غزوة أحد وأنه كان من حِكَمه هذا المعنى الجميل[2].. وراجع كذلك ما ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى فيما قُدّر على الحسن والحسين عليهما رضوان الله تعالى وأنهما سيدا شباب أهل الجنة وأنها رتبة رفيعة وقد ولدا في عز الإسلام فلم يُبتلوا مع أصحاب رسول الله فى مواجهتهم مع المشركين فقُدّر لهما من البلاء ما يرفعهما إلى هذه الدرجات العلا رضي الله عنهما وعن الصحابة أجمعين وجمعنا بهم في مستقر رحمته..

وإذا علم أن الله تعالى يُنضجه ويربيه ويسوي شخصيته ويُكْسبه من المعاني والتعبدات في هذا البلاء ما يستصحبه بقية عمره ليصل لربه تعالى .. كما في قصة يوسف عليه السلام.

إذا علم هذا هدأت نفسه: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، قال السلف: هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيصبر ..

«أيْ ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقينًا صادقًا وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقال الأعمش عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرئ عنده هذه الآية ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[3].

وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى كشاهد لهذا: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩]، يعني: حالاً بعد حال.

* * *

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٨٩.
(٢) راجع زاد المعاد لابن القيم رحمه الله.
(٣) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٤٨١.

وينظر المؤمن أيضًا أن ما يحدث مقصود أن يحدث، وأنه مساق لك أنت، وأن شيئًا لا يحدث جزافًا، وأن الله لا يغفل عما يصيبك .. فلا يحدث شيء إلا بإذنه ولا يحدث إلا بعلم ولا يحدث إلا لحكمة فالأمر مقصود وهذا كله في قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الانبياء: ٣٥]، فالإصابة بالشر كما الإصابة بالخير كلاهما مقصود لحكمة.

وإذا نظرت إلى موضع آخر تم لك الأمر والمعنى تمامًا: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]، والمصائب داخلة في هذا.

والمعنى أن الأمر من المصائب وغيرها له قدْر معين، لشخص معين، لزمن معين ثم ترفع، ووراءه حكمة محددة لو علمتها لحمدت الله تعالى .. وسواء حمدته أو لم تحمده فهو القاهر فوق عباده ـ والله تعالى له الحمد فهو المستحق له في الأولى والآخرة .. وفي السموات وفي الأرض ..

ولذلك شرع لنا هذا الذكر: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ [التغابن: ١]، فالله ملك قاهر لا يخرج شيء عن قدره وقهره .. وله الحمد فهو الحكيم اللطيف الخبير .. فهو المخوف وهو المحبوب .. وهو الذي يُهرب من عذابه وغضبه ويُهرب إليه..فكم ممن يَملك ولا يُحمد وكم ممن يُحمد ولا يَملك ولكن رب العالمين سبحانه له الملك وله الحمد.

* * *

كذلك لا تستوي المصائب والنعم فالنعم غلاّبة وسبّاقة .. ومن نظر اعتبر .. فمن نظر إلى البلاء وجده مغمورًا في نعم لا تحصى مغمورا من جوانبه بلطف رب العالمين ورحمته .. فالآية على إطلاقها للعباد جميعًا المبتلى منهم والمعافَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨].

ثم انظر أخيرًا إلى رحمته وفرَجه تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وانظر الى هذه اللفتة الجميلة فى هذه الآية الكريمة:﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ فانظر إلى كشفه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ فانظر إلى استقراره ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

فالخير كله فى يديه وهو أهله سبحانه، والشر ليس إليه وإنما هو عدله فى خلقه.

* * *

اليأس والقنوط والحزن والتجهم والتشاؤم

هذا طبع لبعض النفوس .. وصفات تميل لها بعض الطباع .. كشخص فاقد للأمل .. وقد لا يرى الخير وهو غارق فيه .. ولا يرى الأمل لائحًا .. وهو دائم الشكوى قليل الصبر سريع الجزع .. وهو يطبع من حوله بطابعه السيئ وطالعه النكد.

والمعايش لكتاب الله تعالى لا يجد أن هذه هي الشخصية ولا الحالة النفسية التي يريدها كتاب الله تعالى.

١- فانظر إلى قاعدة عامة ـ وإن كان وردت بخصوص مشكلات شخصية واجتماعية ـ لكنها وردت على وجه العموم والإطلاق: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

يعني: إذا سألت الآن وأنت في مأزق:

ماذا سيحدث؟ ستكون الإجابة الربانية هذه الآية: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

وإذا سألت ماذا أنتظر؟ ستكون الإجابة: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

ما هي المرحلة القادمة؟ ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .. هكذا بإطلاق ..

سواء أمر مادي ـ كما هو سبب نزول الآية وسياقها ـ أو نفسي ..

ومن تعامل مع ربه هكذا ورجا فيه هذا لا يخيب ربه ظنه أبدًا فهو عند ظن عبده به .. مع أن شأنه تعالى التيسير والتفريج والتنفيث وأن ما يصيبك إما عقوبة لذنب لتطهيرك، مع العفو عن الكثير وإنما تجازى بالأقل، أو رفعًا لدرجات لا تبلغها أعمالك.

راجع ما أشرنا إليه قريبًا من كلام ابن القيم في "زاد المعاد" وتعليقه على مصاب الصحابة في غزوة أُحُد، وكلام شيخ الإسلام على ما قدر من مقتل الحسن والحسين رضي الله عنهما وهما سيدا شباب أهل الجنة، وهي درجة عالية وقد ولدا في عز الإسلام فلم يُبتلوا مع أصحاب رسول الله في مواجهتهم مع المشركين فقُدّر لهما من المصائب ما يصلان به إلى هذا المقام الرفيع .. رضي الله عنهما وأرضاهما وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

* * *

٢- وانظر إلى هذه الآية: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥-٦]، فهو عسر مُعرَف .. محفوف بيسرين. فالعسر مكرر والألف واللام الثانية راجعة إلى الألف واللام الأولى (لام العهد) .. وأما اليسر فمنكّر للتعظيم وللتنويع فهو كثير وغير محدد .. هكذا جاءت الآيتان أيضًا كقاعدة وليس أمرًا مؤقتًا ولا خاصًا، ولهذا قال ﷺ (لن يغلب عسر يسرين) من أجل هذا .

* * *

٣- وانظر إلى الآية التي أوردناها سلفًا: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

فعند الضر ذكر تعالى لنا كشفه يعني: أنه مؤقت ويُنتظر كشفه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾، ويُتعبد لله بطلب كشفه وفي هذا جاء: «إن الله يحب عبده الذي يحب الفرج»، «أفضل العبادة انتظار الفرج»..

وأما عند الخير فذكر لنا تعالى وجه استقراره بجملة اسمية فيها عموم قدرته ودوامها: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

٤- وانظر كذلك إلى قوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]، فالأمور كلها لها تقدير إلهي .. من ناحية الكتابة والقضاء، ولها قدْر معين في زمانها ورفعها .. وفي هذا جاء: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال السلف: يفرج كربًا وينفث همًا ويغفر ذنبًا.

«عن مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾، قال: من شأنه أن يجيب داعيًا أو يعطي سائلاً أو يفك عانيًا أو يشفي سقيمًا.. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيًا ويكشف كربًا ويجيب مضطرًا ويغفر ذنبًا.. وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض يحيي حيًا ويميت ميتًا ويربي صغيرًا ويفك أسيرًا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم»(١).

٥- وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢].

وانظر: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

قد يخوفك الشيطان أنه قد لا يدركك فضل الله تعالى لكن الله تعالى يقول لك شيئًا أعظم من هذا كله؛ يقول أن هذا الفضل سيلحقك ويدركك بل لن تستطيع لا أنت ولا غيرك رد فضل الله تعالى عليك أو على غيرك!! فسبحان أرحم الراحمين وله المحامد كلها.

* * *

٦- وانظر إلى الأمل وسط الظلام:

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٨].

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨ - ١٢٩].

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٤٩.

مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٢].

وهكذا كان محمد ﷺ .. البشارة عند الضيق لعلمه أن مع العسر يسران كما قال، ولعلمه أن سيجعل الله بعد عسر يسرًا، ولعلمه أن الله قد جعل لكل شيء قدرًا، ولعلمه بصدق وعد الله تعالى .. وغير ذلك مما أوحى ربه إليه.

ولهذا لما جاءه خبر خيانة قريظة قال الله أكبر فتحت كذا وفتحت كذا، وحدَّث الصحابة عن مجال أكبر بكثير مما هم فيه الآن وعن أفق لم يفكروا فيه وهو كنوز كسرى وقيصر! وهذا مع الوحي تعبد لله تعالى: «قال ابن إسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى قال: ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟»، قال: قلت: نعم. قال: «أما الأولى فإن الله فتح عليّ باب اليمن وأما الثانية فإن الله فتح عليّ باب الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق».

قال البيهقي: وهذا الذي ذكره ابن إسحاق قد ذكره موسى ابن عقبة في مغازيه، وذكره أبو الأسود عن عروة في السيرة.

قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا فحفرنا حتى إذا بلغنا الندى ظهرت لنا صخرة بيضاء مروة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو في قبة تركية فأخبره عنها فجاء فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ـ يعني: المدينة ـ حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك، وذكر ذلك سلمان والمسلمون لرسول الله ﷺ وسألوه عن ذلك النور، فقال: «لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثانية أضاءت القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا»، واستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعود صادق.

قال: ولما طلعت الأحزاب قال المؤمنون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾، وقال المنافقون: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا!. فنزل فيهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1].

* * *

(١) سيرة ابن كثير، جـ ٣، ص ١٨٦. وراجع تحقيق المباركفوري في الرحيق المختوم، وأن هذه المواقف جاءت بعد خبر خيانة قريظة.

٧- وانظر إلى رجل يقدم في دعائه أسباب ومقدمات تقطع بعكس ما يرجو، ثم يترك هذه المقدمات يأسًا منها وينطلق في رجائه في ربه مستدلاً بسابق عهده مع ربه أنه لم يَشْقَ بدعائه:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ١ - ٦]، وقد حدث.

٨- وانظر إلى شيخ كبير وزوجه عقيم فبشر بغلام وحفيد وكلاهما صالحان وأنبياء وأئمة هدى ..بل ومنهم ذرية عظيمة وأنبياء:

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠].

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧١ - ٧٣].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣].

* * *

٩- وانظر إلى من فقد ابنه .. وبعد زمن يفقد آخر .. وثالثًا يأبى الرجوع .. فكلما زاد البلاء زادت بشارته عكس ما يتوقعه الخلق ..

فعندما بدأ البلاء بقولهم: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٦ - ١٨]، كانت إجابته: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]..

فلما زاد البلاء بهذه الرسالة: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨٢]، زادت عبادته وبشارته.

ففي يوسف قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

وهاهنا زاد مع الصبر حسن الظن: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣].

بل وعبودية ثالثة: طلب الرجاء والسعي في تحقيقه: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

١٠- واليائس من ذنبه جعل له نداء كل لحظة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وجعل عنوانًا دائمًا بذكر صفات الله: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١ - ٣].

يقول البيضاوي: «وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها[١]».

ويد ربك مبسوطة لنا ليلاً لنتوب مما اجترحنا في نهارنا، ومبسوطة لنا نهارًا لنتوب من جراحات ليلنا .. والله يفرح بعبده التائب .. بل وينادي العاصي من قريب .. فالمعرض عن ربه، ربُه ينتظره ويدعوه .. فكيف بالمقبل عليه؟.

وخزائن ربنا لا تنفذ لا خزائن المال ولا العلم ولا العطاء من ولد ومن مسكن ومن زوجة ..

* * *

١١- والله يحب البشارة وقدّرها لعباده: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]، فهو يعلم تعالى شوق النفوس للبشرى وارتياحها لها[٢] فبشر عباده المؤمنين: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

ثم شرعها لعباده وأمر نبيه بها: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ووعد الأجر العظيم على بشارة المؤمن وقد روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فاجأ من أخيه المسلم فرحة غفر الله له». قال بن المبارك وهو يحاول إدخال الفرحة على أحد إخوانه بعدما ذكر الحديث: فأحببت أن أفاجئه فرحة على فرحة[٣].

وهكذا كان الصحابة فلما نزلت توبة الثلاثة الذين خلفوا تسابق الصحابة بين من صعد الجبل يبشر أخاه بأعلى صوته ومن انطلق على فرسه لبشرى أخيه، وهذه ليست من فراغ بل هي تربية محمد ﷺ.

وفي الحديث: «بشروا ولا تنفروا».

وقد أطلْتُ هنا لعموم الداء في أحداث الملمات بالمسلمين وقلة الناصر وكثرة العدو ونفاق الرفيق وانصراف الناس عن ما يصلحهم وكذلك الأحداث الغالبة.

ولهذا يشير شيخ الاسلام عند شرحه لحديث (بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) يقول أن الغربة لا تقتضى النواح والعويل بل تقتضى التمسك بالدين وأن هذا المتمسك بدينه بين المفرّطين سيكون أسعد من غيره لقوله فطوبى للغرباء يعنى فهم أسعد من غيرهم ..

فحتى فى هذا الحال تكون السعادة والتفاؤل والاستبشار بالخير.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٨٢.

(٢) ومن هذا الباب حب النبي ﷺ الاسم الحسن للشخص وللطريق في سفره وفي جهاده.

(٣) ديوان عبد الله بن المبارك، تحقيق سعد كريم الفقي، ص٨.

الجبن

داء يمنع الإنسان أن يَقْدُم حتى لتحصيل مصلحته .. أو لفعل قيمة خيّرة أو إغاثة لملهوف .. وهو نوع من البخل لكن بمنع النفس عن النفع بها للنفس وللخلق.

وبالنظر في كتاب الله تعالى على وجه الاستشفاء والمعالجة من الداء تجد العلاج الناجع في هذا الكتاب العزيز:

١ - ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]، فالأمر مقدور والحوادث مكتوبة.

ومعطَى الآية واضح أن الإقدام والإحجام لا يغير قدَرًا، ولا يمنع حادثًا ولا يعجل بما كتب ولا يؤخره .. وهذا أصل في علاج هذا الأمر؛ فالإيمان بالقدر يدفع للإقدام لا للإحجام كما فهمته خلوف المسلمين المعاصرة[1].

* * *

٢ - وأكثر من هذا نجد من أنجع الأدوية هذه الجملة فيمن نكث عن الجهاد:

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾، وهي آية جديرة بالوقوف كثيرًا ..

سياق الآية كلها هكذا: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «يقولون: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾.

وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة، حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة، وحينما تعاني آلام الهزيمة! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن؛ وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع؛ وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحًا ولا مستقرًا؛ وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة، وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها! وهي لا يمكن ـ بهذا الغبش في التصور ـ أن ترى يد الله وراء الأحداث، ولا حكمته في الابتلاء. إنما المسألة كلها ـ في اعتبارها ـ خسارة في خسارة! وضياع في ضياع!.

هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله. لأمر الحياة والموت. ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

---

(١) يراجع كتاب مفاهيم ينبغي أن تصحح، للأستاذ محمد قطب، فصل القضاء والقدر.

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾؛ ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة، وكان أمركم كله لتقديركم .. ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .. إن هنالك أجلاً مكتوبًا لا يستقدم ولا يستأخر. وإن هنالك مضجعًا مقسومًا لابد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه! فإذا حل الأجل، سعى صاحبه بقدميه إليه، وجاء إلى مضجعه برجليه، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم، ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم!.

ويا للتعبير العجيب .. ﴿ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .. فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذي تستريح فيه الجنوب، وتسكن فيه الخطى، وينتهي إليه الضاربون في الأرض .. مضجع يأتون إليه بدافع خفي لا يدركونه ولا يملكونه، إنما هو يدركهم ويملكهم؛ ويتصرف في أمرهم كما يشاء. والاستسلام له أروح للقلب، وأهدأ للنفس، وأريح للضمير! إنه قدر الله. ووراءه حكمته»[1].

* * *

٣- ومن رغب في تأخير الأمر بالقتال نزل له: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٧ - ٧٨].

٤- ثم قرر تعالى أن الموت مكتوب؛ فموت أو قتل في سبيل الله .. أيهما خير لك؟ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧ - ١٥٨].

٥- وقد قبض الله أرواح ألوف خافوا الموت ثم أحياهم تعليمًا وتوكيدًا للخلق أن الإماتة والإحياء بيده تعالى وأن الإقدام والإحجام لا يغير قدرًا ولا ينجي منه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وقد جاءت هذه الآية تمهيدًا للأمر بالجهاد فقال بعدها: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٤].

ثم أعطانا مثلاً لمن جبن ولمن أقدم .. وأن الخراب والدمار لحق بالجبان .. وأما العصر الذهبي والعز إنما حصل لمن أقدم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَث لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٢].

فلمَ التأخر فيما تعلم وتوقن أنه الخير ..؟.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

البخل

وهو فهم خطأ لمعنى المال وتذوق منحرف لمعنى امتلاكه .. يجعل المال هدفًا في ذاته وليس وسيلة لحصول منافع أو خدمات. أو إصلاح المسلمين، أو إصلاح ذات بينهم، أو التمكين للدين، أو لنشر الخير وعموم قيم الهدى .. وستر العورات وستر الأعراض .. وسد جوعة .. ورحمة اليتامى والثكالى .. وتفريج الكرب وتنفيث الهم .. ومسح دمعة ورسم بسمة .. وأحيانًا منعًا للإذلال وحفظا لماء الوجوه لأقوام الموت أعظم عندهم من بذل ماء وجوههم طلبا من الخلق .. فالبخيل يفهم الأمر على غير وجهه.

والله تعالى يداوي هذا الداء:

١- ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣]، فالمال ماله وإنما آتانا إياه تبعًا للابتلاء العام: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والنص على أن المقصود به إقامة الحياة كالأمثلة التي سقناها في تعريفه: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء: ٥]، يعني: إقامة لحياتكم ومصالحكم.

٢- وينص تعالى أنه وارثه: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠]، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

٣- وأنه معدود على العبد، ووبال عليه إن بخل به: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

٤- وأن إعداد المال للنوائب دون الطاعة لن يفيد صاحبه: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ٢ - ٣]، يقول البيضاوي: «﴿ وَعَدَّدَهُۥ ﴾ وجعله عدة للنوازل أو عده مرة بعد أخرى»(١).

٥- وأن صاحبه لا يخلوا عن الابتلاء: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾.

٦- وأن الإنفاق تزكية للنفس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥]، وقد فسر كثير من السلف الزكاة هنا بالإنفاق .. مع اختلاف الأمثلة التي ضربوها كصدقة الفطر أو غيرها فالآية تنتظم الجميع.

٧- وأن الأمور لا تسير على حال واحد، والأمان: التقوى، فالله تعالى قدير فكما يغني أشخاصًا ويُفقر آخرين: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٦].

فإنه تعالى يغني أشخاصًا حينًا وحينًا يُفقرهم هم أنفسهم: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]، فقوله: ﴿ لَهُۥ ﴾ يعني: نفس الشخص.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٥٢٨.

٨- والأمان التقوى وليس كنز المال: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

٩- وأن المنفق يجب أن يعلم أنه فقير لهذه النفقة فهو المحتاج للإنفاق لهدايته ولتيسير السبيل عليه إلى الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل: ٥ - ١١].

١٠- ونص تعالى أن الإنفاق عائد على النفس: ﴿ .. وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المزمل: ٢٠]. ومما أشار اليه بعض أهل العلم أن من بعض معاني اختيار صيغة القرض لله تعالى في باب الصدقة ليُعْلم العبد بضمان رجوع ماله اليه.

﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وآيات أخرى في معناها.

١١- وانظر إلى وعده تعالى بإطلاق بالإخلاف على المنفق؛ قال تعالى ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وفي الحديث «اللهم أعط منفقاً خلفاً».

١٢- ونص أن الذي يبخل يمنع نفسه خيرها: ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [محمد: ٣٨].

١٣- وأن الامتناع عن الإنفاق تهلكة: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا .. ﴾ [البقرة: ١٩٥].

١٤- وأنه مؤذن بالاستبدال: ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

فليحذر الممسك إذًا.

* * *

الذل من أجل الرزق
والالتواء والنفاق وإهانة النفس وإهدار الكرامة والقيم للحصول على المال ..
والتزلف للمخلوق لهذا الغرض

هذا داء يلحق كثيرًا من المحتاجين ـ إلا من رحم ربك ـ ويلحق محبي المال ومتألهيه حتى لو كانوا يملكون!.

وقد واجه إبراهيم عليه السلام قومه بعلاج الأمر:

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧]، هكذا لا يبتغى الرزق إلا عند الله تعالى.

٢ - ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣]، فالمالك هو الله تعالى وإنما أجرى رزقه بأسباب قدّرها على يد من يشاء من خلقه تعالى، ولا يكون شيء إلا بإذنه تعالى .. فليكن نظر القلب إليه وتعلقه إنما هو به سبحانه وتعالى.

٣- وينص تعالى أن عنده كل الخزائن: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

* * *

٤ - **ومن أنجع الأمور للعبد تدبر هذه الآية:** ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

فهل يبقى بعدها علّقة بالقلب لغير الله تعالى ..؟.

وهل يجوز الذل لغيره تعالى من أجل الرزق ..؟.

وانظر إلى طلب الرزق لك: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

فماذا يبقى للمخلوق في قلبك من رجاء لما في يده أو ذل له.

وكلمة من هذا تكفي من أراد الله تعالى هدايته ..

* * *

أمراض عِدة ..
من الجهل والجبن والبخل والتهور والطيش وضعف الخبرات
وضعف البصيرة وغبش الرؤية وأمراض كثيرة

جعل الله تعالى علاجًا عامًا لهذا كله ولغيره بقوله تعالى كقاعدة عامة تنتظم أمراضًا كثيرة جدًا لم نعددها ها هنا ولصعوبة الحصر ـ كذلك فقال تعالى عمومًا:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فطلب التخلق بالمكارم والتخلي عن الرذائل لا يكون إلا بالجهد .. وكذلك العلم ينال بالجهد .. والشرط واضح:

أ- **والذين جاهدوا:** فهو العمل وبَذْل الجهد.

ب- **فينا:** أن يكون خالصًا له ابتغاء مرضاته .

والوعد هو هداية السبل لرب العالمين. وهذا أمر جامع، وفي هذا جاء الحديث: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم» الحديث.

«روى البخاري معلقًا: «إنما العلم» لا يحصل العلم إلا بالتعلم. قال في الفتح: هو حديث مرفوع أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية ﷺ بلفظ: «يا أيها الناس تعلموا إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[1]. إسناده حسن.

فالجاهل لن يحصّل العلم إلا بكد وتعب وسهر وبحث بل وقد يكون بسفر وإيثار طلبه على الراحة والملذات والبطالة والشهوات .. ومع الجهد ترى النتيجة.

والطائش المتهور يتعلم حينما يجتهد أن يعرف مرضه ويقر به ويسعى لعلاجه بالجهد المتواصل واكتساب الخبرات من مواقف متعددة حتى ترسخ في نفسه ملَكة جديدة من هذا الجهد.

الجبان .. موقف ثم موقف .. تشجُع يليه آخر .. سيختلف الأمر.

البخيل مرة أنفق فذاق للإنفاق طعمًا جديدًا، قد يكون هذا الطعم مغلوبًا بألم الإنفاق لكن مع التتابع سيستقر الأمر للجانب الرباني .. طالما تريده .. حتى يجد له لذة مع الاحتساب لله تعالى وطلب الأجر منه .. وأحيانًا رؤية أثر النفقة في الآخرين من بعيد تريح كثيرًا النفوس المحترمة.

ضعف البصيرة والخبرات لن تستمر مع طلب الرؤية وطلب الوضوح، ومن رام البصيرة وطلبها من مظانها ـ هذا الكتاب العزيز كتاب الله تعالى ـ واعتمد الطريقة الفطرية الضرورية، واستوفى الشرطين: بذل الجهد، للـــه .. فلن يخذلك ربك سبحانه.

وغير ذلك كثير من الأمراض .. حتى تربية الولد .. معاملة الزوج .. النجاح في العمل .. التفوق في الدراسة .. التميز في مجال ما لإفادة المسلمين وإنقاذ الأمة .. أعمال الخير والبر .. الإصلاح بين الناس

---

(١) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٣٧.

..كل هذا ضابط الأمر فيه هو استهداف هدف محدد .. له قيمة محترمة يحبه الله ورسوله .. والتركيز عليه لعلاجه والاستعانة برب العالمين بتيسير الأمور وأسبابها .. فكلٌ بإذنه يكون الوصول لما تصبو أو قريبًا منه أو أكثر حسب ما يقدر الله تعالى تبعًا لحكمته.

الجهد المنظم والمدروس مطلوب .. الترتيب مطلوب .. أخذ الأمور من مظانها مطلوب .. تراكم الجهد معه تراكم الخبرات وتستجيب النفس وتعظم قدراتها كل هذا ينتظمه قوله تعالى: ﴿ جَٰهَدُواْ ﴾.

وابتغاء وجه الله تعالى هو محور الأمور ولُبُّها وبركتها، وهذا يتناوله قوله: ﴿ فِينَا ﴾، وإلا فكم ممن يبذل الجهد في النار، والثمرة بشعة، والأثر إفساد وفساد! ..

* * *

جملة من الحِكم والرسائل السريعة من أجل علو الهمة:

وفى مجال التربية عمومًا على هذا الدين والمضي فيه وحمله وإصلاح النفس على مقتضاه والإعداد للآخرة والتهيؤ للقاء رب العالمين، ولتكرار المحاولة للاستقامة على أمر أرحم الراحمين ..

ولطلب الجنة التي طلبها الأولون والآخرون .. سلعة الله تعالى الغالية ..

وإلى العزائم الفاترة والهمم الضعيفة .. إلى من يفتقدون علوَّ الهمة ومَضاء العزيمة وطلب المعالي ..

إلى من ييأسون من نفوسهم لما يروها قد عصت أو انحرفت لحظة ما .. فيتركون لها العنان في المعصية بدلاً من إيوائها لربها فتُنزل به رحالها وتشتكى إليه فاقتها وتستمد منه العون ..

إلى السالكين الدرب لكن ليست لهم جدية الخُطا وجمع الهم والعزم على الطريق وجمع النفس كلها على هذا الهدف فينوبهم شيء من اللعب أو اللهو أو الانشغال عن الطريق ببنياته أو بقواطع مما لا يليق بضخامة العبء وعظم الغاية.

فلابد من البذل، فإن لم تجد في نفسك الهمة والعزم؛ فعزم منقوض ماذا يغني عنك ..؟!.

إلى هؤلاء نسوق هذه الكلمات للإمام الجليل ابن القيم رحمه الله في نصائحه كسالك لربه تعالى .. على وجه الرسائل السريعة المتنوعة والغالية، يقول رحمه الله:

- يا مخنَّثَ العزم أين أنت، والطريقُ طريقٌ تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ ـ تزها[1] أنت باللهو واللعب؟.
- فيا[2] دارها بالحزن إن مزارها قريبٌ، ولكن دون ذلك أهوالُ.
- قيل لبعض العباد إلى كم تتعب نفسك؟ فقال: راحتَها أريد.
- يا بائعًا نفسه بهوى مَن حبُه ضنًا، ووصلُه أذى، وحسنُه إلى فنا[1]، لقد بعتَ أنفس الأشياء بثمن بخس، كأنك لم تعرف قدر السلعة، ولا خسة الثمن، حتى إذا قدمت يوم التغابن تبين لك أن الغبن في عقد التبايع.

---

(١) يعني: مقابل هذا الجد تتنعم باللهو واللعب؟.
(٢) حرف النداء للتنبيه.

• لا إله إلا الله سلعة؛ الله مشتريها، وثمنها الجنة، والدلال (الوسيط) الرسول، ترضي ببيعها بجزء يسير مما لا يساوي كله جناح بعوضة؟[٢].

• كم قطع زرع قبل التمام، فما ظن الزرع المستحصد ..؟.

• اشتر نفسك، فالسوق قائمة والثمن موجود.

• لابد من سِنَة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون: دنا الصباح!!.

• نور العقل يضيء في ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير في ذلك النور عواقب الأمور،أُخرج بالعزم من هذا[٣].

• كان ذو البجادين يتيمًا في الصغر، فكفله عمه فنازعته نفسه إلى اتباع الرسول، فهَمّ بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة فقعد ينتظر العم، فلما تكاملت صحته نفذ الصبر فناداه ضمير الوجْد:

إلى كم حبسها تشكو المضيقا ... أَثِرْها، ربما وجدت طريقا

فقال: يا عم طال انتظاري لإسلامك، وما أرى منك نشاطًا، فقال: والله لئن أسلمتَ لأنتزعن كل ما أعطيتك، فصاح لسان الشوق: نظرةٌ من محمد أحب إلى من الدنيا وما فيها.

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلَها ... تريد أم الدنيا وما في طواياها

لقال ترابٌ من غبـار نعالها ... ألذُّ إلى نفسي وأشفى لبلواها

فلما تجرد للسير إلى الرسول، جرّده عمه من الثياب، فناولته الأم بجادًا، فقطعه لسفر الوصل نصفين، اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، **فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في ساقة الأحباب، والمحب لا يرى طول الطريق لأن المقصود يعينه.**

ألا بلغ الله الحمى من يريده ... وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه نزل الرسول ﷺ يمهد له لحده وجعل يقول: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه»، فصاح ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب القبر[٤].

• لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها، أماتوا فيها الهوى طلبا لحياة الأبد.

• لما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرّت لهم الحياة، حَلى لهم تذكر: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[٥].

• اشتر نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير، ذلك يوم التغابن، يوم يعض الظالم على يديه.

إذا أنت لم ترحل بزاد من التـقى ... وأبصرت يوم الحشر من قد تـزودا

---

(١) يقصد كل من أحب شيئا من الدنيا دون الله تعالى من امرأة أو ما سواها من المال وغيره مما يلهى عن الله تعالى.
(٢) الفوائد، جـ ١، ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٤١.
(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٥.
(٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٦.

نـدمت على أن لا تكـون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كـان ارصدا
ومشتت العزمـات ينفـق عمره ... حيـران لا ظفر ولا إخفـــاق[١].

- من تَلَمّح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر.
- الغاية؛ أول في التقدير، آخر في الوجود، مبدأ في نظر العقل، منتهى في منازل الوصول.
- أَلِفْتَ عجز العادة فلو عَلَتْ بك همتُك رُبا المعالي لاحت لك أنوار العزائم.
- إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.
- بينك وبين الفائزين جبل الهوى .. نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطوِ فضل منزل تلحق بالقوم.
- الدنيا مضمار سباق، وقد انعقد الغبار وخَفِي السابق، والناس في المضمار بين: فارس وراجل وأصحاب حمر معقرة:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتَكَ أم حمار[٢]

- طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات .. فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفر منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا .. فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس. وبالله التوفيق[٣].
- يا مغرورا بالأماني .. لُعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأُمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأُمر بايساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة سُكْر، وأبان عضوا من أعضائك بثلاثة دراهم[٤].

فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ولا يخاف عقباها؛ دخلت امرأة النار في هرّة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار.

- العمر بآخره والعمل بخاتمته؛ من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقى ربه في ذلك الوجه[٥].

* * *

(١) الفوائد، جـ ١، ص ٤٩.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٠.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٤.
(٤) يقصد نصاب قطع اليد في السرقة.
(٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٣.

جماع الدواء

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩].

كما بدأنا هذا الكتاب بالتوحيد كأصل المقاصد التي نزل من أجلها القرآن الكريم..كذلك نختم به، فهو رأس الدواء .. فالتوحيد هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه.

وجماع الدواء كأصل جامع هو تحقيق التوحيد يعني: تحقيق كماله .. وذلك أن أصل التوحيد هو ترك الشرك الأعظم في التعبد والنسك، وفي التشريع، وفي الولاء .. أما كماله فهو الفناء السُنّي.

والمقصود بالفناء السُنّي: هو تجريد التوحيد تمامًا بحيث يخلو القلب من إرادة إلا ما يريده الله تعالى إرادة شرعية دينية .. فالنفس والهوى غير الله تعالى، ولا يطاعان من دون الله تعالى، بل يطاع رب العالمين ويؤثَر أمره؛ بحيث يخلو القلب عن إرادة سوى المراد الشرعي في كل حال .. فتنكسر في قلب العبد الإرادات النابعة من النفوس وأهوائها ويخلو القلب للمراد الشرعي الديني.

وأن يخلو القلب من الحب إلا حب رب العالمين فيملأ عليه قلبه لما يستحقه جل جلاله من الحب لِذاته تعالى ولأسمائه وصفاته، ولأفعاله بالعباد وتحببه إلينا بنعمه التترى التي لا تعد ولا تحصى، فلا يُحَب إلا هو ولا يُحَب غيره إلا فيه من الأشخاص والأفعال ..

فيحب الشخص أو الفعل لأن الله تعالى يحبه لا لشيء آخر، ويحبه بالقدْر الذي يحبه الله تعالى ومن الوجه الذي يحبه تعالى .. ويبغض الشخص أو الفعل لأن الله تعالى يبغضه وبالقدر الذي يبغضه الله تعالى ومن الوجه الذي يبغضه به، ولو تغير العبد من معصية إلى طاعة ولو لم يعرفه المؤمن معرفة شخصية لتغير المؤمن من بغضه إلى حبه بقدر ما يظهر من الموافقة الشرعية .. وهكذا.

بل يستغني بحب الله تعالى عن حب ما سواه لأن الله تعالى لا يُحَب أيّ قدر من الحب بل يُحَب غاية الحب وكماله وأعلى درجاته؛ فالحب له درجات:

(عَلاقة) لتعلق القلب بالمحبوب، ثم (صَبابة) لانصباب القلب نحوه، ثم (غرام) لملازمته ذِكْر وصورة محبوبه، ثم (عشق) لتداخل حب المحبوب بقلب المحب، ثم (تتيم) وهو أعلاه وهى درجة العبودية، ولهذا يقال تيم الله يعني: عبد الله[1].

والتحقيق أن يستغني بهذا عما سواه حتى يجد طعم هذا وذوقه في القلب فتكون الطاعة مشتهاه، والمعصية له مبغوضة يقلاها لأنها لا توافق أمر محبوبه ولأنها العائق بين العبد ومحبوبه الأعظم الذي استولى حبه على شغاف قلبه فلم يجد حب غيره له في قلبه مسلكًا.

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سُمي الخليل خليلاً

(١) رسالة العبودية لشيخ الإسلام.

والعبد يحب ربه حتى يستوحش مما سواه وهو لربه مشتاق حتى يكون شغله وسلواه لقاءه: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥]، ولذا يجاهد من أجل ربه ويبذل له الروح كما بذل له القلب .. وفي الطريق يبذل الجهد والمال وما يملك ولذا قال في الآية بعدها: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦].

ومن فقد هذا الحب فهو لم يعرف الله تعالى ولذا عليه طلب معرفته؛ فإن من عرف ربه تعالى تضاءل كل ما سواه في قلبه وتضاءل طلب ما سواه حتى لا يجد نفسه تطلب إلا ربها وخالقها طالبةً مرضاته وحبه ولقاءه وجواره في جنات عدن .. فإذا به لا يجد في قلبه طلب إرضاء أحد سواه ولا يهمه سخط ما سواه ولا ينشغل بأمر غيره تعالى .. ومن حُرم هذا فقد حُرم.

وكلما طال الطريق ذَكَر محبوبه وذَكَر قرب اللقاء فهاج الشوق في قلبه وعلم أن ما بقى أقل مما كان، فيسرع الخطى وتهون عليه المشاق وقد عرف قرب المنزل.

ومن ملأ الحب عليه قلبه لا يغفل عن ذكره:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

وهل من سلوى سوى ذكر قرب اللقاء والوصول لغايته..

وهذا المجرد قلبه من حب غيره تعالى يلازمه هذا الحب والذكر لمحبوبه سبحانه وتعالى فى أحلك المواقف والمواجهات وهذا هو المحك: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه» يعني: خصمه في الجهاد.

كان عنترة يذكر محبوبته في ساحة الوغى وكان هذا أكبر دليل على حبه لها فأرسل اليها:

ولقد ذكرتكِ والرماح نواهلٌ مِنّى ... وبيضُ الهند تَقْطُرُ من دمي

والله أولى وأحق وأعظم قدرًا وأعظم إحسانًا وأحسن أسماءً وصفاتٍ وأفعالاً .. كل قلب قد فُطِر على طلبه تعالى، ولا راحة له إلا بالوصول إليه؛ فأعظم الحرمان هو أن يحجب عن ربه: عن معرفته وذكره وطلبه بطلب مرضاته ولقائه في الدنيا، والحجب عنه وعن رضاه وجنته في الآخرة.

ومن ملأ هذا الحب عليه قلبه طاب قلبه وطابت جوارحه التي يستعبدها الحب فتعمل في خدمة المحبوب بلزوم شرعه والبحث عما يرضيه والفرار كل الفرار من سخطه ومن كل ما يحجب عنه أو يؤخر عن المسير إليه حتى يكون عندها حسنات الأبرار سيئات المقربين .. فتطلب نفسُه الأعلى من الأعمال لأنها أقرب إليه وحبه تعالى لها أشد وهى أسرع في الوصول إليه.

الشرع عند المحب كنز لأنه طريقه إلى المطلوب الأعظم الذي في لقائه سعادته وفي ذِكره الأنس به .. فما طابت الدنيا إلا بذِكره ولا طابت الجنة إلا بقربه.

ومن أجل المحبوب سبحانه تنكسر إرادات الهوى والطبع وإرادات النفوس فينكسر القلب لله تعالى فيجد قلبَه لا يطلب سوى المراد الديني الشرعي لأن فيه مرضاة رب العالمين وفي هذا جاء الأثر: قال موسى يا رب أين أجدك؟ قال: «عند المنكسرة قلوبهم من أجلى، أقترب كل يوم إليهم شبرًا،

ولولا ذلك لاحترقت قلوبهم»، والمقصود بالانكسار هو ما قدّمنا من انكسار الإرادات إلا مما يريده الله تعالى إرادة شرعية دينية[١].

ومن تجريد التوحيد أن يخلو القلب عن الخوف إلا خوفه تعالى فيَسْلم القلب لله تعالى من كل خوف .. والله تعالى يُخاف لمقامه تعالى وبهائه وجلاله ويُخاف كذلك لعقابه تعالى .. وسبب العقوبة هو التفريط فيخشى العبد ذنبه ولذا قال عليّ ﷺ: (لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه)، ويعلم عِظم حق رب العالمين وأنه كما قال حذيفة بن اليمان وأبو الدرداء وابن مسعود وغيرهم من الصحابة أنه تعالى: (لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته إياهم خيرًا لهم من أعمالهم)، وذلك لعظم حقه تعالى الذي لا يوفيه أحد، فيبقى العبد مهما عمل وبَذَل وقدّم لربه، خائفًا منكسرًا يرجو القبول وأن يُغمر ويُدرك برحمته تعالى وألا يُوكَل لنفسه طرفة عين .. وألا يُعامَل بعدل الله تعالى وإلا هلك العبد وإنما نرجو رحمته وفضله وإحسانه سبحانه.

وأن يخلو من رجاء كل ما سوى الله ويستغني برجائه تعالى .. وكذلك **يستغني بالذل له عن الذل لما سواه وبالصبر على أمره عما سواه وأن يستغني بمعونته عن معونة من سواه، وبحول ربه وقوته عن حول وقوة من سواه .. ولا حول ولا قوة لسواه سبحانه.**

ويستغني بالاستعاذة به والالتجاء إليه والعياذ به عن الاستعاذة أو الالتجاء أو اللياذ أو العياذ بسواه.

ولا يكون هذا إلا ممن رأى الأمور وأزمّتها بيده تعالى .. ورأى العبيد عبيدًا لا يملكون .. ورأى الخلق مقهورين، فالله قاهر فوق عباده، ورأى نواصيهم مأخوذة بيده تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، ولا يحدث في الوجود حدث إلا بعلمه وإذنه القدري الكوني لما له تعالى من الحكمة البالغة .. فالخلق مقهور .. عبيد أذلة .. فقراء لا يملكون ..

الموت بيده والحياة كذلك .. الغنى والفقر، والصحة والمرض، والملك ونزعه، والرفع والخفض، والقبض والبسط، والعطاء والمنع، والرَوْح والفرح والفرَج كله بيده ..

الجناب العظيم جنابه والملك والملكوت بيده .. الكل إليه فقير يطلبون بلسان الحال والمقال، وهو الكريم المعطي، وهو الحكيم لا يفعل إلا بحكمة، تبارك ربنا وجلّت قدرته ..

له السلطان وبيده تدبير الأمور كلها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، لا يقضِي سواه، ولا راد لحكمه، ولا معقب لأمره، ولا مستدرك لما يقضي .. يجير من يشاء فيمنعه ويحميه، ولو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها .. ولا يجير أحد عليه ولا يمتنع أحد منه ولا يمنع أحدٌ أحدًا من أخذه .. هو القوي .. وهو بالغ أمره إذا أراد أمرًا بلغه لا يحول دونه شيء .. مع لطفه تعالى لما يشاء فما أعظم صفاته وما أحسن أسماءه.

وهو الجبار يجبر كسر عبيده، وهو الجبار يأخذ من يشاء ..

تصاريف الأقدار عنده لا يملكها سواه، وصرير الأقلام لا تجرى إلا بما دبره وقضاه.

---

(١) يراجع مجموع الفتاوى.

الأقضية بيده، ومن عنده نزولها .. والخير منه نازل إلى خلقه وهو مقتضى رحمته وإحسانه .. غمر العبيد والخلق كله بإحسانه المتتالي وهو عنهم غني .. يعلم ويستر، ويصبر ويغفر، ويتوب، ويعفو حتى قبل أن يستغفر العبد .. يناديهم للتوبة ويُصرّف النداء ويكرره لينقذهم من شفا حفرة من النار .. يطلب منهم عبادته لخيرهم هم وراحتهم هم ولتحصيلهم مصالحهم هم في الدارين ولأنه لا راحة لنفوسهم إلا به تعالى .. دلّنا عليه ولا يحتاج منا ذرة، وما نعمل فخيره لنا وهو الغني ..

فهل يرجى سواه؟ وهل يُخشى غيره؟ وهل يفر أحد إلا إليه؟!.

وهل يستعان أو يستغاث أو يلوذ أحد إلا بجنابه تعالى؟!.

من نظر إلى هذا هان عليه العبيد وخلا قلبه من كل رجاء ومن كل تعظيم ومن كل خوف ومن كل استعانة أو استغاثة أو لياذ إلا برب العالمين الذي أرسل رسله لخلقه بهذا.

فتبارك الله رب العالمين وسبحانه عما يقول كل جاحد أو لاهٍ .. ونستغفره لكل ذنب وخطيئة وعن كل لحظة مرت بلا سعى حثيث إليه .. ونستغفره عن الزلات والفرطات وعن كل الذنوب.

* * *

يقول ابن القيم رحمه الله: «**ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يُسكِنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا ..**

فالتفرق يوقع وحشة الحجاب، وألمه أشد من ألم العذاب؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم»[1].

* * *

يقول شيخ الإسلام: «والفناء يراد به ثلاثة أمور: أحدها هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب وهو أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر الله به؛ فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله وبحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله»[2].

ويقول: «فصل الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور:

---

(١) مدارج السالكين، جـ٣، ص ١٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى، جـ ٣، ص ١١٨.

أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال وليس لأحد خروج عن هذا.

وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة وما يتبع ذلك»[١].

ويقول: «وهذه الحال[٢] تعرض لكثير من السالكين وليست حالاً لازمة لكل سالك ولا هي أيضًا غاية محمودة بل ثبوت العقل والفهم والعلم مع التوحيد باطنًا وظاهرًا كحال نبينا ﷺ وأصحابه أكمل من هذا وأتم. والمعنى الذي يسمونه الفناء ينقسم ثلاثة أقسام: فناء عن عبادة السوى، وفناء عن شهود السوى، وفناء عن وجود السوى.

فالأول: أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو تحقيق لا إله إلا الله، فإنه يفنى من قلبه كل تأله لغير الله ولا يبقى في قلبه تأله لغير الله، وكل من كان أكمل في هذا التوحيد كان أفضل عند الله»[٣].

ويقول: «فإن الفناء والغيب هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر وبالمعروف عن المعرفة وبالمعبود عن العبادة حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل وهذا مقام الفناء الذي يعرض لكثير من السالكين لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة، بخلاف الفناء الشرعي؛ فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه؛ فإن هذا تحقيق التوحيد والإيمان.

وأما النوع الثالث من الفناء: وهو الفناء عن وجود السوى بحيث يرى أن وجود الخالق هو وجود المخلوق فهذا هو قول هؤلاء الملاحدة أهل الوحدة»[٤].

* * *

وهذا لأن أكثر الأدواء إنما كانت بسبب حظوظ النفوس ومشاركتها في الأمور على وجه الهوى أو لتعلق النفوس بغير الله تعالى حبًا أو طاعةً أو خوفًا أو ذلاً أو رجاءً أو نظرًا أو طلبًا لغيره أو طلبًا من غيره، ومن قام بهذا انحلت عنده عقد كثيرة وشفيت أمراض كثيرة ..

وتداوى العبد بالدواء الأعظم فإن هذا هو القلب السليم.

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ١٠، ص ٣٣٧.
(٢) يقصد مَن يغيب عن الوعي أثناء تفكره وتعبده.
(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦٩.
(٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٤٣.

تعريف القلب السليم:

يقول الحافظ ابن كثير: «سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، حيي أن يشهد أن لا إله إلا الله.

وقال مجاهد والحسن وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب المنافق مريض قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة»[١].

ويقول: «﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني: شهادة أن لا إله إلا الله»[٢].

ويقول الطبري: «وقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يقول تعالى ذكره: إذ جاء إبراهيم ربه بقلب سليم من الشرك مخلص له التوحيد.

كما حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والله من الشرك.

حدثنا محمد قال: ثنا أحمد قال: ثنا أسباط عن السدي في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال: سليم من الشرك.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا جرير عن ليث عن مجاهد ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال: لا شك.

وقال آخرون في ذلك بما: حدثنا أبو كريب قال: ثنا عثام بن علي قال: ثنا هشام عن أبيه قال: يا بني لا تكونوا لعّانين ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئًا قط فقال الله ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾»[٣].

ويقول القرطبي: «وقال جل وعز: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: لم يشرك به قط»[٤].

ويقول الشوكاني: «واختلف في معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد. قال أكثر المفسرين وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض. وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقيل السالم من آفة المال والبنين. وقال الضحاك: السليم الخالص. وقال الجنيد السليم في اللغة اللديغ فمعناه: أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى»[٥].

ويقول البيضاوي: «﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له. قيل حزين من السليم بمعنى اللديغ»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٤٥١.
(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ١٨.
(٣) تفسير الطبري، جـ ١٠، ص ٤٩٩.
(٤) تفسير القرطبي، جـ ٧، ص ٢٦.
(٥) فتح القدير، جـ ٤، ص ١٥٣.
(٦) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٧.

وتحقيق السلامة من الشرك تكون بالسلامة من الشرك الأعظم والخفي ومن تعلق أي علقة بالقلب بغير الله تعالى كما مر بيان تفصيله.

وهذا هو المراد من العبد .. يُسلم لله تعالى وحده علمًا وعملاً .. وكان من أجل هذا جهدنا ..

وهذا مرادنا بهذا العرض المتواضع لكتاب الله تعالى وهذا الجهد المتواضع ..

نسأل الله له البركة والقبول.

والأمر يحتاج إلى الكثير من الجهد لكن هذه بداية والأمر مفتوح لغيرنا .. ويهمنا جدًا المآخذ نفسها للأمر .. وتوضيح الصورة العامة للقرآن ولمقاطع كثيرة فيه، وفهم مساقها والمراد منها لنعرف ماذا يراد منا فهمًا .. وكذلك تعبدًا .. فنعرض أنفسنا على الكتاب العزيز ..

ولله الحمد أولاً وآخرًا .. وله الحمد ظاهرًا وباطنًا

وصلي اللهم وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دائمًا أبدًا ما تعاقب الليل والنهار..

obeikandl.com

obeikandl.com

المراجـع

أولاً:

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنة المطهرة

ثانيًا: التفاسير:

١ - جامع البيان عن تأويل القرآن. أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

٢ - تفسير القرآن العظيم. الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير

٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل. عبد الله البيضاوي

٤ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل. عبد الله بن أحمد النسفي

٥ - معالم التنزيل. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي.

٦ - روح المعاني. الألوسي.

٧ - فتح القدير. الشوكاني.

٨ - في ظلال القرآن. الأستاذ/ سيد قطب

ثالثًا: السيرة:

١ - سيرة ابن هشام.

٢ - سيرة ابن كثير.

٣ - مختصر سيرة الرسول. الإمام محمد بن عبد الوهاب.

٤ - البداية والنهاية

رابعًا: فتاوى وكتب ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية:

١ - مجموع الفتاوى الكبرى.

٢ - كتاب النبوات.

٣ - الصارم المسلول. حققه محمد محي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت

٤ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. تعليق السيد/ محمد رشيد رضا ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ مصر

خامسًا: كتب الإمام ابن القيم:

١ - مدارج السالكين. طبعة بيروت ـ ١٩٨٨

٢ - أعلام الموقعين عن رب العالمين. تعليق عصام الدين الصبابطي ـ دار الحديث

٣ - زاد المعاد في هدي خير العباد. دار الريان للتراث ـ مصر

obeikandl.com

٤- مفتاح دار السعادة.
٥- حادي الأرواح.
٦- الفوائد.

سادسًا: كتب الإمام الشاطبي:

١- الموافقات. حققه د/ عبد الله دراز ـ دار المعرفة بيروت
٢- الاعتصام. تعليق السيد/ محمد رشيد رضا ـ المكتبة التجارية الكبرى

سابعًا: مؤلفات المدرسة الوهابية.

١- كتاب التوحيد. الإمام محمد بن عبد الوهاب.
٢- كشف الشبهات الإمام محمد بن عبد الوهاب.
٣- الدرر السنية
٤- مجموعة التوحيد.
٥- مجموعة الرسائل والمسائل النجدية.
٦- تيسير العزيز الحميد.
٧- الكلمات النافعات في المكفرات الواف ات.

ثامنًا: كتب أخرى:

١-الترغيب والترهيب. الحافظ المنذرى
٢- صيد الخاطر. ابن الجوزي.
٣-منهاج التأسيس والتقديس. الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن
٤-المصطلحات الأربعة. أبو الأعلى المودودي.
٥- هذا الدين. الأستاذ سيد قطب.
٦- حد الإسلام وحقيقة الإيمان. الشيخ/ عبد المجيد الشاذلي.
٧- البلاغ المبين.
٨- الطريق إلى الجنة.
٩- الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد. الشيخ صالح الفوزان.
١٠- مدخل دستوري. د. سيد صبري.
١١- نظرية القانون. د.فؤاد عبد الباقى.

obeikandl.com